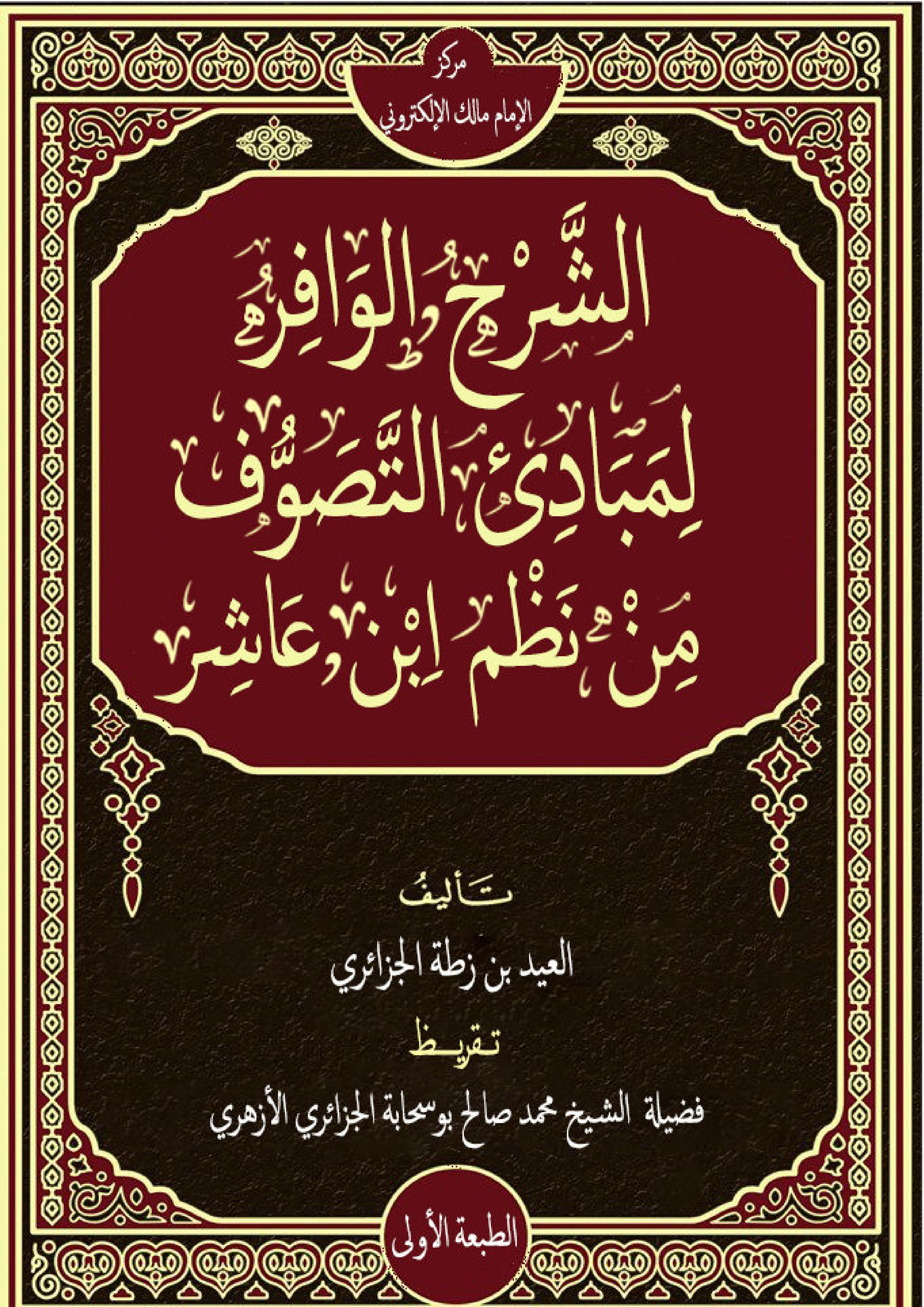


مركز
الإمام مالك الإلكتروني
الشَّرْحُ الوَافِرُ
لِمَبَادِئِ التَّصَوُّفِ
مِنْ نَظْمِ ابْنِ عَاشِرٍ
تأليفُ
العيد بن زطة الجزائري
تقريظ
فضيلة الشيخ محمد صالح بوسحابة الجزائري الأزهري
الطبعة الأولى

الشـــرح الوافـر

لمبادئ التصـوف

من نظم ابن عاشر

تأليف: العيد بن زطـة الجزائري

تقريظ فضيلة الشيخ:

محمد صالح بوسحابة الجزائري الأزهري

الأبيات التي تم شرحها

وَتَوْبَــةٌ مِنْ كُــلِّ ذَنْبٍ يُجْتَـرَمْ	تَجِبُ فَــوْراً مُطْلَقاً وهْــيَ النَّدَمْ
بِشَرْطِ الِاقْلاَعِ ونَفْيِ الِاصْــرَارْ	وليَتَلاَفَ مُمْكِـــناً ذَا اسْتِغْفارْ
وحَاصِلُ التَّقْوَى اجْتِنَابٌ وَامْتِثَالْ	فِي ظَاهِــرٍ وَبَاطِـــــنٍ بِذَا تُنَالْ
فَجَاءَتِ الأَقْسَــامُ حَـقّاً أَرْبَعَـةْ	وَهِــيَ لِلسَّــالِكِ سُبْلُ المَنْفَعَـةْ
يَغُـضُّ عَينَيْهِ عَـــنِ الْمَحَـــارِمِ	يَكُـــفُّ سَمْعَـهُ عَــنِ الْمَـآثِمِ
كَغِيبَــةٍ نَمِيمَــــةٍ زُورٍ كَـــذِبْ	لِسَانُـهُ أَحْـرَى بِتَرْكِ مَا جُلِـــبْ
يَحْفَــــظُ بَطْنَـهُ مِـنَ الحَـــرَامِ	يَتْرُكُ مَـــا شُبِّـــــــهَ بِاهْتِـمَامِ
يَحْفَــظُ فَرْجَهُ وَيتَّقِي الشَّهِيــدْ	فِي البَطْشِ وَالسَّعْيِ لِمَمْنُوعٍ يُرِيدْ
ويُوقِـفُ الأمــورَ حتَّى يَعْلَـــمَا	ما اللهُ فِيهِــنَّ بِهِ قَــدْ حَـكَـمَا
يُطَّهِـــــــرُ الْقَلْبَ مِــنَ الرِّيَـاءِ	وَحَسَـــدٍ عُجْـبٍ وكُـــــلِّ دَاءِ
وَاعْلَمْ بأَنَّ أَصْـــلَ ذِي الآفَاتِ	حُــبُّ الرِّيَاسَـــــةِ وَطَـرْحُ الآتِي
رَأْسُ الخَطَـايا هُوَ حُبُّ الْعاجِلَـهْ	لَيْسَ الدَّوَا إِلاّ فِي الاِضْطِـرَارِ لَهْ

يَصْحَبُ شَيْخاً عَـارِفَ المَسالِكْ يَقِيــهِ فِي طَرِيقِــهِ المَهَــالِكْ
يُـذَكِّـــــــرُهُ اللهَ إِذَا رَآهُ وَيُوصِـلُ الْعَبْــدَ إِلَى مَــوْلَاهُ
يُحاسِــبُ النَّفْسَ عَلَى الأَنْفَاسِ وَيَـزِنُ الْخَاطِـــرَ بالْقِسْـطَاسِ
وَيَحْفَـظُ الْمَفْـرُوضَ رَاسَ المَالِ والنَّفْــلَ رِبْحَــهُ بِــهِ يُــوَالِي
وَيُكْثِـرُ الذِّكْــرَ بِصَفْــوِ لُبِّهِ وَالْعَــوْنُ فِي جَمِيــع ذَا بِرَبِّهِ
يُجَاهِـدُ النَّفْسَ لرَبِّ الْعَالَمِيـنْ وَيَتَحَــلَّى بِمَقَامَــاتِ اليَقِيــنْ
خَـوْفٌ رَجَا شُكْـرٌ وَصَبْرٌ تَوْبَهْ زُهْــدٌ تَوَكُّــلٌ رِضـاً مَحَبَّــهْ
يَصْــدُقُ شاهِــدَهُ فِي الْمُعَامَلهْ يَرْضَــى بِمَا قَــدَّرَهُ الإِلَـهُ لَـهْ
يَصِيــرُ عِنْـدَ ذَاكَ عَــارِفاً بِهِ حُــرّاً وَغَيْــرُهُ خــلاَ مِنْ قَلْبِهِ
فَحَـبَّــهُ الإِلَـهُ وَاصْطَـفَــاهُ لِحَضْــرَةِ الْقُـــدُّوسِ واجْتَبَاهُ

تقريظ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذِي جعل الحمْدَ مفتاحًا لذِكْرِهِ، وسببًا للمزيدِ مِن فَضْلِهِ، ودليلا على آلائه وعظمته، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على المبعوث رحمة للعالمين؛ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثم أما بعــــد:

إنه لمن دواعي الغبطة والسرور، وبواعث السعادة والحبور، أنني اطلعت على كتاب الشيخ العالم الفقيه سيدي العيد بن زطة –حفظه الله ورعاه– المسمى ب "الشرحُ الوافرُ لمبادي التصوف من نظم ابنِ عاشر" فألقيته عظيمَ القدرِ، غزيرَ الفائدةِ، مؤيَّدًا بالأدلة العقلية والنقلية، تناول في ضمينه أهم مبادي علم التصوف الذي هو أحد مراتب الدين الثلاثة.

فله منّي جزيل الشكر، وعميق التقدير، وعاطر التحيّات، وخالص الدعاء.

إِلَى بْنِ زَطَّةَ الشَّيْخِ الجَلِيــــل   جَــزَاكَ اللهُ عَـنَّا أَجْمَعِيـــــــنَا

لَقَدْ أَبْدَعْتَ فِي بَابِ التَّصَوُّف   بِشَـــرْحٍ وَافِــرٍ لِلطَّالِبِيـــــــنَا

وَلَفْـظٍ مُمْتِعٍ يَهْـدِي الحَيَـارَى   لَقَــدْ أَحْيَيْتَ عِلْـمَ السَّالِفِينـَا

أَلا يَا شَيْـخَنَا حَقَّقت حُلْماً فَوَفَّقَكُـــمْ إِلَهُ الْعَـالَمِيــــنَا

وَأَبْقَاكُمْ لِصَرْحِ الْعِلْـمِ فَخرًا عَلَى مَـرِّ الدُّهُـــورِ وَالسِّنِيـنَا

إِلَى بَـرِّ الأَمَـــانِ تَسِيرُ دَوْمـًا أَمَامَ الْمُغْرِضِيـنَ الحَاسِـــدِيـنَا

صَـــلاةُ اللهِ يَتْلُوهَا السَّـــلامُ عَلَى المَصْدُوقِ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَا

وَجُمْلَـــةِ آلـهِ وَالصَّحْبِ ثُـمَّ مَنِ اتَّبَعَ الصِّـــرَاطَ الْمُسْتَبِيـنَا

الزاوية الصنهاجية في :

22 صفر 1445هـ الموافق ل 7 سبتمبر 2023م

خادم الكتاب والسنة:

محمد صالح بوسحابة الأزهريّ

النسخة الأصلية للتقريظ

تقريظ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله الذي جعل الحمْدَ مفتاحًا لذِكْرِه، وسببًا للمزيد مِن فَضْلِهِ، ودليلًا على آلائه وعظمته، والصلاةُ والسلامُ الأتمّانِ الأكملان على المبعوث رحمةً للعالمين؛ سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثمّ أما بعـــــــد:

إنّه لمن دواعي الغبطة والسرور، وبَواعث السعادة والحبور: أنني اطّلعت على كتاب فضيلة الشيخ العالم الفقيه سيّدي العيد بن زطة -حفظه الله ورعاه- المسمى "الشّرْحُ الْوَافِر لِمَبَادِئِ التّصَوّفِ مِنْ نَظْمِ ابْن عَاشِر" فَأَلْفَيْتُهُ عَظِيمَ القدْر، غَزِيرَ الْفَائدة، مُؤيّدًا بالأدلّة النّقلية والعقْلية، تناول في ضمينه أهمّ مبادئ علم التصوف الذي هو أحد مراتب الدّين الثّلاثة.

فَلَهُ مِنّي جزيلَ الشُّكْر، وعَميقَ التّقْدير، وعَاطر التّحيّات، وخالصَ الدُّعاء.

إلى بن زطّة الشّيخ الجليل — جزاك الله عنّا أجمعينا
لقد أبدعت في باب التّصوّف — بشرح وافر للطّالبينا
ولفظ ممتع يهدي الحيارى — لقد أحييت علم السّالفينا
ألا يا شيخنا حققت حلمًا — فوفّقكم إله العالمينا
وأبقاكم لصرح العلم فخرًا — على مرّ الدّهور والسّنينا
إلى برّ الأمان تسير قومًا — أمام المغرضين الحاسدينا
صلاة الله يتلوها السّلام — على المصطفى خير المرسلينا
وجملة آله والصّحب ثمّ — من اتّبع الصّراط المستبينا

الزاوية الصنهاجية في:
22صفر 1445 هـ
الموافق لـ07 سبتمبر 2023

خادمُ الكتابِ والسُّنّة
محمد صالح بوسحابة الأزهريّ

مقدمـة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الميامين.

وبعدُ: فبعد أن وفقني الله جل جلاله لشرح كتاب العقيدة من نظم ابن عاشر، أرتأيت أن أشرح كتاب مبادئ التصوف من ذات النظم، شرحا ميسرا مختصرا مؤصلا، تعميما للفائدة بين عامة المؤمنين، وخدمة لهذا العلم الجليل، الذي لا يتحقق صدق التوجه إلى الله إلا به، ولا خلاص للأنفس من آفاتها وغوائلها بدونه، إلا أنه للأسف يكاد يكون مجهولا لدى كثير من المسلمين، وقد طال حقيقته تشويه وتحريف، وأثيرت حوله العديد من الشبهات، حتى أصبح التصوف في نظر البعض عبارةً عن تكهنات غيبية، أو خرافات وأوهام، أو طواف بالقبور وتمسح بها واستغاثة بأهلها، ومرد هذا الخلط إلى سببين بارزين:

أحدهما: السلوكات الصادرة عن بعض المنتسبين للتصوف عن جهالة، كمن قال فيهم مالك رحمه الله: (..**ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق**).

والثاني: تقصير أرباب التصوف في التأصيل له، وإيضاح حقائقه لعامة المسلمين، بالأسلوب الذي يعقلونه وباللغة التي يفهمونها؛ لئلا يظل التصوف

مدفونا في بطون المصنفات، أو يبقى منحصرا في أوساط محدودة، بينما عامة المسلمين يجهلونه، ولربما نظروا إليه نظرة استغراب وتنكّر..

ونحن مسؤولون أمام الله تعالى عن هذا التقصير؛ لأن التصوف ليس حكرا على طائفة معينة، بل هو رسالة عامة لجميع الأمة، فينبغي العمل على إيصاله إلى كل مسلمة ومسلمة، ومما يؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم: ((وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ))

فالعلم الموروث عن الأنبياء نوعان: علم الشريعة وعلم الحقيقة:

- فعلم الشريعة يهدف إلى ضبط ظواهر العبادات كشروط الصلاة وأركانها...
- وعلم الحقيقة [وهو علم التصوف] يهدف إلى ضبط أسرار العبادات، كحضور القلب في الصلاة والإخلاص فيها...

وإذن فالشريعة والحقيقة متلازمان كتلازم الروح والجسد، ومن ثم لزم الاعتناء بعلم التصوف كالاعتناء بعلم الفقه أو أشد اعتناء؛ لأنه لا صلاح للمفرد والمجتمع إلا بهما مجتمعَيْن، ولأنه لا صلاح للظواهر ما لم تصلح البواطن؛ ولأجل ذلك نقترح أن تُقرر مادة التصوف في المعاهد الإسلامية؛ لأن الإمام أحوج الناس إلى التربية الروحية، وإلى معرفة آفات النفوس وسبل الخلاص منها، فالمتصدي للريادة الدينية لا يخلو طريقه غالبا من آفات نفسية، ولذلك

اشترط علماء التصوف في الشيخ المربي أن يكون عارفا بالمسالك الموصلة إلى الله تعالى، كما قال ابن عاشر رحمه الله:

يَصْحَبُ شَيْخاً عَارِفَ المَسالِكْ   يَقِيهِ فِي طَرِيقِهِ الْمَهَالِكْ

ولا سبيل إلى معرفة تلك المسالك إلا بواسطة هذا العلم الجليل، الذي به تتأتَّى صناعة الدعاة الربانيين، الدالين على الله بحالهم ومقالهم، ومن لم يكن عارفا بالمسالك الموصلة إلى الله فأنَّى له أن يدل عليها غيرَه!؟

وما هذا الشرح البسيط إلا إسهام متواضع في درء الشبهات عن علم التصوف، وإيضاح حقائقه وتبسيط مسائله؛ لتكون في متناول عموم المؤمنين، وربطها بأصولها الشرعية؛ لتطمئن إليها قلوبهم، ويزول ما في نفوسهم من نفور من هذا العلم الجليل، وتحصل لهم الرغبة في تحصيله، فتزكو به نفوسهم وتصفو به سرائرهم، وتصلح به أحوالهم وأعمالهم، كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: (أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ).

وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب خالصا لوجهه الكريم، وأن يكتب له القَبول، وينفع به عموم المؤمنين، آمين يا رب العالمين.

العيد بن التوهامي بن زطة الجزائري

الاثنين 20 محرم 1445هـ/7 أوت 2023

الفصل الأول

التعريف

بعلم التصوف

المبحث الأول: المبادئ العشرة لعلم التصوف

قال العلماء أن كل فن يتوقف فهمه على فهم مقدمة المبادئ العشرة، المجموعة في قولهم:

إِنَّ مَبـــادِي كُـلِّ فَـنٍّ عَشَـــرَهْ   الحَـــدُّ وَالموضُـوعُ ثُـمَّ الثَّمَـــرَه

وَنِسْبَـةٌ وَفَضْلُـــهُ وَالوَاضِــــعْ   وَالِاسْمُ الِاسْتِمْدَادُ حُكْمُ الشَّارِعْ

مَسَائِلٌ والبَعْضُ بِالبَعْضِ اكْتَفَى   ومن دَرَى الجَمِيعَ حَازَ الشَّـــرَفَا

وسنقدم لعلم التصوف بهذه المقدمة، وهي كالآتي:

1- حده: أي تعريفه.

أ – التصوف لغة:

اختلف العلماء في اشتقاق كلمة (تصوف) اختلافا كثيرا، وأشهر الأقوال أنه مشتق من الصفاء؛ وعلل أصحاب هذا القول اختيارهم بأن التصوف به تصفو القلوب من عللها، وتتخلص النفوس من آفاتها، وإلى هذا الاشتقاق أشار أبو الفتح البُسْتِي رحمه الله بقوله:

تنازَعَ النّاسُ في الصُّوفِيِّ واخْتَلَفُوا * قِـدْماً وظَنُّوهُ مُشْتَقاًّ مِنَ الصُّـوفِ
ولَسْتُ أَمْنَحُ هَذَا الِاسْمَ غَيْـرَ فتىً * صَافَي فَصُوفِيَ حَتَّى لُقِّبَ الصُّوفِي

ويرى القشيري رحمه الله أن اشتقاق التصوف من الصفاء بعيد فِي مقتضى اللغة[1]. وهو الحق لأن الصفاء مصدر: صفاء يصفو صفاءً وصفوًا، أما التصوف فهو مصدر تصوف يتصوف تصوفا.

واستظهر القشيري أن يكون التصوف لقبا لا اشتقاق له في اللغة ولا قياس[2].

ولا يصح في اللغة مما قيل في اشتقاق التصوف إلا أن يكون مشتقا من الصوف، فيقال: تَصَوَّفَ إذا لبس الصوف، ونظيره في المعاجم والقواميس: تَقَمَّصَ إذا لبس القميص.

وهو ما اختاره السراج الطوسي رحمه الله، وعلل ذلك بقوله: (نُسِبُوا – يعني الصوفية– إلى ظاهر اللباس، ولم يُنسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال، التي هم بها متوسمون؛ لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعار المتنسكين)[3].

وهذا التعليل منتقد، وقد قال القشيري رضي الله عنه: أن الصوفية لم يختصوا بلباس الصوف حتى يُنسَبوا إليه[4].

لكن هناك تعليل آخر يؤيد اشتقاق التصوف من الصوف، وهو تعليل قوي

---

1 الرسالة القشيرية 440
2 نفسه 440
3 اللمع -في تاريخ التصوف- لأبي نصر السراج الطوسي 41
4 الرسالة القشيرية 440

مبناه على المشابهة بين الصوفي والصوفة ، وذلك من ثلاثة أوجه:

الأول: أن الصوفي كالصوفة في لين جانبه ولطف معاملته وسهولة معاشرته؛ لأن التصوف كله مبناه على الخلق ، كما قال الكتاني: **(التصوف خُلُقٌ : فمن زاد عليك فِي الخلق، فَقَدْ زاد عليك فِي الصفاء)**[1].

والثاني: أن الصوفي في استسلامه لربه كالصوفة تحركها الرياح حيث دارت، وهو تحركه رياح المحبة حيث دارت، كما قال بعض العرفين: **(التصوف: استرسال النفس مَعَ اللَّه تَعَالَى عَلَى مَا يريد)**[2].

والثالث: أن الصوفي في تضحيته بنفسه وانقياده لأوامر ربه ورغبته في ملاقاته، كالقربان الذي يُقدم أضحيةً لله عز وجل، والأفضل في القرابين أن تكون من ذوات الصوف.

ومما يؤيد هذا ما رُوي عن أم الغوثِ بنِ مرٍّ ، أنها كانت لا يعيش لها ولد، فنذرت لئن عاش لها ولد، لتعلقنَّ فوق رأسه صوفة، ولتجعلنَّه ربيط الكعبة، فعاش لها الغوث فوفّت بنذرها وقدمت ولدها قربانا لله تعالى؛ ليكون عبدا خادما لبيته، ولذلك سمي الغوث: (صوفة) [3] وسمي بنوه ببني صوفة[4].

---

1 الرسالة القشيرية 442
2 الرسالة القشيرية 441
3 انظر : تلبيس إبليس لابي الفرج بن الجوزي 146
4 وقيل: أن الصوفية نُسبوا إليه لمشابهتهم له في انقطاعهم إلى الله.

والشاهد في القصة: أن في الصوف دلالة رمزية على التضحية بالنفس، كما هو دأب السادة الصوفية، الذين قال فيهم ذو النون: (**هُمْ قَوْمٌ آثروا اللَّه عَزَّ وَجَلَّ عَلَى كُل شَيْء، فآثرهم اللَّه عَزَّ وَجَلَّ عَلَى كُل شَيْء**)[1].

ومن خلال ما تقدم يتجلى لنا ما يلي:

– أن اشتقاق التصوف من الصوف هو الراجح، ولا مناص من حمله على هذا ليستقيم مع ما يقتضيه اللسان العربي، وليست العبرة بالاشتقاق أو التسمية، بل بالحقائق والمضمون.

– وأن هذا العلم سمي تصوفا؛ بالنظر إلى ما يحدثه من آثار في نفس المتحلي به، بحيث يصيره كالصوفة في لين جانبه ولطف معاشرته، وفي استرساله مع رياح محبة ربه حيث دارت، وفي تضحيته بنفسه وانقياده لأوامره، كما ينقاد القربان طائعا مستسلما إلى موضع التضحية به.

---

1 انظر : الرسالة القشيرية **443**

ب – التصوف اصطلاحا:

لقد اختلف العلماء أيضا في تعريف التصوف اصطلاحا اختلافا كثيرا، ولا طائل من سرد تلك التعاريف، التي يعبر كلٌّ منها عن حال معينة من أحوال التصوف، ولا يعبر أيٌّ منها عن الحقيقة الكاملة لعلم التصوف، ولا يتفق أيٌّ منها مع شروط التعريف وقواعده، المقررة في مناهج البحث العلمي،

والتي من جملتها أن يكون التعريف مساويا للمعرَّف، لا أوسع منه ولا أضيق، وأن يكون مبرزا لحقيقة المعرَّف كاملة. وقد أرتايت أن أعرفه تعريفا بسيطا، يصدق عليه، ويبين ماهيته بدقة، ويمكن لقارئه أن يفهم منه وظيفة هذه العلم ومجالاته... فأقول وبالله التوفيق:

التصوف: عِلْمٌ يُتَوَصَّل بِهِ إِلَى تَطْهِيرِ الْقُلُوبِ مِنْ عِلَلِهَا، وَتَخْلِيَتِهَا مِنْ غَيْرِ اللهِ، وَتَحْلِيتِهَا بِمَعْرِفَتِهِ ومَحَبَّتِهِ، وَإِخْضَاعِ الْجَوَارِحِ كُلِّهَا لِأَوَامِرِهِ

هذا التعريف البسيط مستخلص من بيان العلماء لحقيقة التصوف، وهو عبارة عن جمع لأهم ما تفرق من تعريفاتهم للتصوف، حيث عرفه كل منهم حسب مشربه، وقد تضمن هذا التعريف أربعة قيود، وشرحها كالآتي:

القيد الأول: علم يتوصَّل به إلى تطهير القلوب من عللها:

أي بعلم التصوف يتم تخليص القلوب وتصفيتها من عللها وصفاتها المذمومة، كالغل والحقد، والغش والحسد، وطلب العلو وحب الثناء، والكبر والعجب، والرياء وحب الظهور، والأنانية والغضب، والطمع والبخل، والحرص على الدنيا وطول الأمل، وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء...

وهذا القيد يتفق تماما مع تعريف ابن زكوان لعلم التصوف حيث قال:

علمٌ به تصفيةُ البواطـن مِن كدَرَات النفس في المواطنْ

والثاني: تخليتها من غير الله:

أعني إفراغ القلوب من العلائق والمحبوبات والشهوات، لتبقى خالصة لمحبة الله بلا مزاحم؛ كما قال أبوالحسن الْبُوشَنْجِيّ: [التَّصَوُّفُ عِنْدِي فَرَاغُ الْقَلْبِ][1]. يعني من كل شيء سوى الله تعالى.

وسئل بعض العارفين: ما خير ما أُعطي العبد؟ فقال: ((فَرَاغُ الْقَلْبِ عَمَّا لَا يَعْنِيهِ لِيَتَفَرَّغَ إِلَى مَا يَعْنِيهِ))[(2)].

---

1 الزهد الكبير للبيهقي 290

2 حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني 10 / 360

فالعبد له قلب واحد، لقوله تعالى: (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِيجَوْفِهِ)[1].

والقلب له وجهة واحدة، فإما أن يَوجَّه لله، وإما إن يوجه لغيره، فإن وجه لمحبة الدنيا وشهواتها اشتغل بها عن محبة الله، وإن وُجه لمحبته تعالى لم يبرِح عنها إلى محبة سواه، على نحو قول القائل:

وقد كان قلبي ضائعاً قبل حُبِّكُمْ ** فكان بِحُبِّ الخلْقِ يَلْهُو ويَمْرَحُ
فلمَّا دعا قلبي هــواك أجابَــــهُ ** فلسْتُ أراهُ عن فَنائِكَ يَبْرَحُ

وليس المراد فراغ القلب عن جميع مهمات الدنيا وحاجاتها الضرورية، فذلك لا يتصور وهو غير مطلوب، وقد قال تعالى: ((وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا))[2]. وإنما المطلوب تخفيفها وتقليلها بقدر الإمكان، ويكفي في ذلك أن لا يجعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه.

---

1 الأحزاب 4
2 القصص 77

والثالث: تحليتها بمعرفته ومحبته:

أعني: شحنَ القلوب وتزيينَها بمعرفة الله ومحبته وإخلاص الوُدّ له جل ثناؤه، وقد نبهت بهذا القيد على ارتباط علم التصوف بعلم التوحيد، فهما يلتقيان في حقيقة واحدة، وهي: معرفة الله تعالى.

فمعرفة الله هي الأصل الذي ينبني عليه كل من التوحيد والتصوف؛ لكونها أول واجب على المكلف؛ لقوله تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)[1].

وهي الأصل الذي تتفرع عنه سائر مقامات اليقين، كالمحبة والرضا والشكر والتوكل...

وإذن: فمحبته تعالى – التي تضمنها هذا القيد – هي ثمرة لمعرفته جل ثناؤه؛ إذ لا تتصور محبةٌ من غير معرفة وإدراك، لأن الإنسان لا يحب شيئا لا يعرفه، فإذا أدرك العبد دواعي الحب في شيء أحبه، وإذا أحبه خضع له وأطاعه، كما قال القائل:

لَوْ كَانَ حُبُّك صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ .. إنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

وقال ابن عطاء الله السكندري: (ما أحْبَبْتَ شَيئاً إلا كُنْتَ لَهُ عَبْداً، وَهُوَ لا يُحِبُّ أنْ تَكونَ لِغَيْرِهِ عَبْداً)

1 محمد 19

والحاصل: أن معرفة الله ومحبته تعالى هي الغاية الأساسية التي يهدف علم التصوف إلى تحقيقها، لأنها هي الطريق إلى تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى، والخضوع له ظاهرا وباطنا، ومراقبته في السر والعلن.. حتى يعبد المؤمن ربه وهو مستحضر لإطّلاعه عليه، وإحاطة علمه بجميع أحواله الظاهرة والباطنة، ثم يترقّى شيئا فشيئا في مقامات العبودية، حتى يعبده وكأنه يراه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن مقام الإحسان: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ).

والرابع: إخضاع الجوارح كلها لأوامره:

أعني أن من وظائف علم التصوف – علاوة على ما تقدم – إخضاع الجوارح الظاهرة لأوامر الله، وقد أشرت بهذا القيد إلى قول الْمُزَيِّنِ: [التصوف الانقياد للحق][1] أي الخضوع والاستسلام لله تعالى ظاهرا وباطنا.

واعلم بأن انقياد الجوارح مبناه على ما تقدم من صفاء القلب وصلاحه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام:(أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ).

---

1 الزهد الكبير للبيهقي 290

فبتصفية البواطن تصفو الظواهر، وبصلاح القلوب تصلح الجوارح، وبذلك تتجلى ثمار التصوف في الأخلاق والسلوك؛ وتتحقق الغاية من هذا العلم الجليل، المتمثلة في ملازمة الآداب والتحلي بمكارم الأخلاق، كما قال الْجُرَيْرِيُّ رحمه الله: [التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب][1].

وقال الهروي قدس الله سره: (وَاجْتمعت كلمة الناطقين فِي هَذَا الْعلم، أَن التصوف هُوَ: الْخلق. وجماع الْكَلَام فِيهِ يَدُور على قطب وَاحِد، وَهُوَ بذل الْمَعْرُوف وكف الْأَذَى)[2].

2- **اسمه:** علم التصوف، ويسمى أيضا بعلم الحقيقة، وعلم الحقيقة يأتي في مقابل علم الشريعة، فعلم الشريعة يُعنى بظواهر العبادات، كشروط الصلاة وفرائضها.. التي تعتبر جسد الصلاة، أما علم الحقيقة فيُعنى بأسرار العبادات، كحضور القلب مع الله أثناء الصلاة، وهو روح الصلاة.

فالشريعة والحقيقة متلازمان كتلازم الروح والجسد، والمؤمن الكامل من جمع بينهما.

3- **مَوضُوعه:** هو أعمالُ النُّفوس ظاهِراً وباطِناً...

4- **نسبته:** هو أحد علوم الدين الإسلامي إلى جانب الفقه والعقيدة.

---

1 الرسالة القشيرية 443
2 منازل السائرين 59

5- واضِعه: هو اللهُ تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم، وما عملُ العلماء في التصوف إلا استنباط وضبط وتبيين لأحكامه التي تضمنتها النصوص الشرعية.

6- استمداده: مِنَ القرآن العظيم والسُّنَّة النبوية المطهرة.

- كاستمداد إخلاص العبودية من قوله تعالى: (**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**)[1].

- وكاستمداد المجاهدة من قوله تعالى: (**وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا**)[2].

- وكاستمداد المحاسبة من قوله تعالى: (**وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**)[3].

-- وكاستمداد المشاهدة والمراقبة من قوله صلى الله عليه وسلم عن الإحسان: (**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**).

- وكاستمداد عدم اعتراض المريد على شيخه من قصة الخضر مع موسى: (**قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**)[1].

---

1 البينة 5
2 العنكبوت 63
3 الحشر 18

7- **مَسَائله**: قضاياه الباحثة عن أعمال القلوب، وكشف آفات النفوس، وسبل إصلاحها.

8- **فضله**: هو من أشرف العلوم وأجلها قدرا؛ فبه يصل العبد إلى مولاه ويعرفه حق معرفته، فينقاد إلى طاعته ظاهرا وباطنا، كما قال جل جلاله: (**وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**)[2].

9- **حكم تعلمه**: فرض عين على كل مكلف؛ لأن الغالب أن الانسان لا ينفك عن دواعي الشر، كالرياء والعجب والحسد ونحو ذلك..

وفي الحديث الشريف: (**ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ**)[3].

والتخلص من هذه المهللكات ونحوها واجب إجماعا، وهو لا يمكن إلا بمعرفة أسبابها وطرق علاجها، و(**ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب**)؛ وإذاً فتعلم علم التصوف واجب؛ لأنه لا خلاص من تلك المهلكات ونحوها إلا به.

---

1 الكهف 70
2 لقمان 22
3 رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب الميم [من اسمه محمد] رقم: 5452

10- ثمرته: هي: إخلاص العبودية لله تعالى، والتنعم بمعرفته ومحبته والأنس بقربه جل ثناؤه، ونوال المكارم الدنيويَّة والأخرويَّة، والفوز بالسعادة الأبديَّة.

المبحث الثاني: التصوف والفقه لا غنى لأحدهما عن الآخر

قلنا في المبحث المتقدم أن الشريعة والحقيقة متلازمان كتلازم الروح والجسد، والمؤمن الكامل هو من جمع بينهما.

وإن الناظر في القرآن العظيم والسنة المطهرة، يجد أن ثمة ارتباطا وثيقا بين الأحكام الفقهية، وبين القيم الروحية، أي بين الفقه والتصوف، وذلك ظاهر لمن يتتبعه ويتأمله، من ذلك مثلا:

سورة الطلاق، فهي مسوقة أصالة لبيان أحكام الطلاق، لكنها بين تقرير حكم وآخر تذكر بالتقوى، والتقوى من أهم موضوعات علم التصوف كما قال ابن عاشر رحمه الله:

وحَاصِلُ التَّقْوَى اجتِنابٌ وَامْتِثَالْ   في ظاهِرٍ وَباطِنٍ بِذَا تُنالْ

وقد ذكرت التقوى في سورة الطلاق خمس مرات:

1- (وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ).

2- (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا).

3- (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا).

4-(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)

5- (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ).

وهذا الارتباط الحاصل بين الفقه والتصوف، كثير جدا في نصوص القرآن والسنة.

وتُستفاد منه حقيقة هامة وهي: أنه لا ينبغي بتر الفقه عن التصوف، ولا التصوف عن الفقه، وإلا أدى ذلك إلى الخلل والزلل، على نحو ما قال الإمام مالك رحمه الله :

(من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق)[1].

وقريبٌ من هذا قول الإمام الشافعي رحمه الله:

فقيهاً وصوفياً فكنْ ليسَ واحِداً**فَإني وَحَـــقِّ اللَّهِ إيَّــاكَ أَنْصَـُحُ
فـــذاك قاسٍ لمْ يَذُقْ قلبُه تُقى**وهذا جهولٌ كيف ذو الجهلِ يَصْلُحُ

ومن خلال قولي مالك والشافعي يتبين لنا بوضوح أن أئمة الهدى الذين تقلت الأمة مذاهبهم بالقبول، كلهم كانوا متصوفة، وأن الفقه والتصوف يسيران جنبا إلى جنب لإصلاح الفرد والمجتمع، ولا يصح فصل أحدهما عن الآخر.

لذلك ينبغي الاعتناء بهذا العلم الجليل، وتنقيته مما أُحدِث فيه من السلوكات الغريبة عنه، وضبطه بالأصول الشرعية، التي نبه عليها علماء هذا الفن؛

1 حاشية العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزية في الفقه المالكي 3 / 95

قال الإمام الجنيد رحمه الله: (**علمنا هَذَا مشيد بحَدِيث رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)[1].

وقال أيضا: (**مذهبنا هَذَا مقيد بأصول الكتاب والسنة**)[2].

وقال أبو القاسم النصرآباذي عليه رحمة الله: [**أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة**][3].

وبناء على ذلك فإن أي سلوك نراه في الواقع يناقض الكتاب والسنة – كرقص وخزعبلات الكركرية ومثيلاتها– فليس بتصوف، وإن زعم أربابه أنه كذلك.

قال ميارة المالكي رحمه الله: ((**ومن البدعة الكبرى ما نشاهده في كثير ممن يدعي لنفسه العبادة والتقدم في الزهد، وينسب نفسه إلى التصوف والفقر، من الاضطراب وأنواع الرقص، والإيماء باليد والرأس، والضرب على الصدر والوقوع على الحاضرين، حتى يؤدي ذلك إلى الضحك والطنز والاستهزاء**))[4].

---

1 نفسه 79

2 الرسالة القشيرية 79

3 الزهد الكبير للبيهقي 290

4 الدر الثمين والمورد المعين 559

فكل ذلك وشبهه يتنزه عنه التصوف الأصيل، ولا يجوز أن يتخذه البعض ذريعة للطعن في هذا العلم الجليل، الذي به تطهر القلوب وتصفو السرائر؛ ويتحقق صدق التوجه إلى الله؛ فإن الطاعن في هذا العلم، طاعن في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ باعتباره المرجعية الأولى للتصوف، كما قال سيدنا البصيري رحمه الله:

وَكُلُّهُمْ مِـنَ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ غَرْفًا مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

فما من متصوف بحق إلا وهو آخذ بقسط من أنوار سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام؛ عملا بقول الحق تبارك وتعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)[1].

ولو علم المسلمون حقيقة التصوف ما تجرأ أحد على الطعن فيه؛ وكيف يطعن فيه وهو أحدُ مقامات الدين الواردة في حديث جبريل: (قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)

فمجموع الدين إيمان وإسلام وإحسان، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم بعد بيان هذه المقامات الثلاثة: (فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ)[1].

1 الأحزاب 21

ولكل مجال من هاته المجالات علمُه الذي يُعنى بضبط مسائله وإيضاح حقائقه.

- فلمجال الإيمان علم العقيدة.
- ولمجال الإســلام علم الفقه.
- ولمجال الإحسان علم التصوف.

وإذا علمت هذه الحقيقة فاعلم أن العلم بالتصوف مندرج ضمن الفقه في الدين، المشار إليه في قوله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهُّ فِي الدِّينِ)[2].

فكما يجب على المؤمن أن يتعلم مسائل العقيدة، ومسائل الفقه كالطهارة والصلاة.. فكذلك يجب عليه أن يتعلم مسائل التصوف.

ومن الأخطاء الشائعة حصر الفقه في الدين في فروع الشريعة، التي أُطلق عليها مصطلح الفقه، من عبادات ومعاملات؛ فإن لفظ [الدين] شامل للعقيدة والفقه والتصوف كما تقدم في حديث جبريل.

ومن هنا تعلم بأن الطائفة المذكورة في قوله تعالى: (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ)[1].

---

1 رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، بَابُ: معرفة الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ والقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ، رقم الحديث: 1

2 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: العلم، باب: من يريد الله به خيرا يفقه في الدين، رقم الحديث:71

– تشمل الفقهاء الذين استنبطوا لنا الأحكام المتعلقة بالظاهر، من عبادات ومعاملات... والتي أُطلق عليها مصطلح الفقه، كمالك والشافعي ونظرائهما.

– وتشمل العلماء الذين بينوا لنا الأحكام المتعلقة بالإيمان، من إلاهيات ونبوّات... والتي أُطلق عليها مصطلح العقيدة، كأبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي ونظرائهما.

– كما تشمل أيضا العلماء الذين استنبطوا لنا الأحكام المتعلقة بأعمال القلوب وتزكية النفوس، من خشية وإخلاص ومحاسبة ومراقبة ومشاهدة... والتي أطلق عليها مصطلح التصوف، كسيدي أبي القاسم الجنيد وسيدي عبد القادر الجيلالي ونظرائهما.

---

1 التوبة 122

المبحث الثالث: شرح عنوان الناظم:
كتاب مبادىء التصوف وهوادي التعرف

1- **الكتاب**: هو في اصطلاح العلماء اسم لمجموعة من المسائل العلمية المشتركة في حكم، فكتاب التصوف هو مجموعة مسائله، كالمحبة والرضا، والخشية والإخلاص، والتوبة والاستغفار، والمحاسبة والمراقبة والمشهادة...

2- **المبادئ**: هي القواعد الأساسيّة التي يقوم عليها الشيء، ومادّتُه الأولية التي يتكوّنُ منها، والمراد بمبادئ التصوف قواعده التي ينبني عليها، وأساسياته التي يتوقف عليها بلوغ المقصود في هذا العلم الجليل.

3- **التصوف**: تقدم تعريفه في المحث الأول:

4- **هوادي التعرف**: الهوادي جمع هادٍ، وهو المرشد والدليل:

والمراد: أن المسائل التي سيذكرها الناظم في هذا الكتاب، هي مبادئ لعلم التصوف، فلا يتحقق الوصول إليه إلا عن طريقها، وهي أيضا هوادي يهتدي بها السالك إلى أنوار معرفة الله تعالى، فعبر بالتعرف لأجل السجع، وأراد المعرفة كما نبه إلى ذلك تلميذه ميارة المالكي رحمه الله.

الفصل الثاني
المبادئ الأساسية
لعلـــم التصـوف

تمهيد

ذكر الناظم رحمه الله جملة من المبادئ الأخلاقية، التي يقوم عليها علم التصوف، وفاء بما وعد به في مقدمة نظمه، حيث قال:

(وَفِي طَرِيقَةِ الجُنَيْدِ السَّالِكْ)

وهذه المبادئ من الأهمية بمكان؛ فينبغي الاعتناء بها والمواظبة عليها، لا سيما في هذا الزمان، الذي ظهرت فيه الفتن، وقست فيه القلوب، وكثرت فيه الشهوات والمغريات... وفي ما يلي بيان تلك المبادئ:

المبحث الأول: التوبة والاستغفار

قال الناظم:

وَتَوْبَةٌ مِنْ كُــلِّ ذَنْبٍ يُجْتَـرَمْ	تَجِبُ فَوْراً مُطْلَقاً وهْيَ النَّدَمْ
بِشَرْطِ الاِقْلاَعِ ونَفْيِ الاِصْرَارْ	وليَتلاَفَ مُمْكِـناً ذَا اسْتِغْفارْ

المطلب الأول: حقيقة التوبة:

التوبة هي: الاصطلاح مع الله تعالى، بالإقلاع عن المعاصي، والندم عليها، والعزم على عدم الرجوع إليها، وإلى حقيقة التوبة أشار الناظم بقوله: (وهْيَ النَّدَمْ) فعرّفها بركنها الأعظم وهو الندم، وهذا من باب إطلاق الشيء على جزئه الأهم، كقوله صلى الله عليه وسلم: (الْحَجُّ عَرَفَةَ).

فالوقوف بعرفة هو أهم ركن في الحج، وكذلك الندم هو أهم ركن في التوبة، وقد ورد في الحديث: (النَّدَمُ تَوْبَةٌ)[1].

---

1 رواه الطبراني في الأوسط، باب: الألف، ح رقم الحديث: 101

والندم هو الحزن والتأسف على الذنب، أما الاستغفار من غير ندم وحزن على الذنب فلا تتحقق به توبة، كمن يتذكر معاصيه الفارطة فيتلذذ بها، بدل الحزن والبكاء عليها.

وقوله: (.. مِنْ كُـلِّ ذَنْبٍ يُجْتَرَمْ):

يعني: أن التوبة تجب من كل ذنب يجترمه الإنسان، أي يكتسبه ويرتكبه.

المطلب الثاني: حكم التوبة

أشار الناظم إلى حكم التوبة بقوله: (... تَجِبُ فَوْراً) يعني أن التوبة واجبة على الفور، فلا يجوز تأخيرها أو التكاسل عنها إجماعا؛ خشية أن يباغته الموتُ وهو على ذلك، فيندم حين لا ينفع الندم، بل قال العلماء: أن تأخير التوبة ذنب يحتاج هو الآخر إلى توبة.

وقوله:(مُطْلَقاً):

أي سواء كان ذلك الذنب كبيرا أو صغيرا[1]، وسواء كان حقا لله أو للعباد، وسواء كان معلوما أو مجهولا.

---

1 وقيل: أن الصغائر لا تفتقر إلى توبة، بل توبتها اجتناب الكبائر؛ لقوله تعالى: (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم)

فما كان من الذنوب معلوما تجب التوبة منه تفصيلا، كأن يندم على ذنب معين ويستغفر الله منه على وجه الخصوص.

وما كان منها مجهولا تجب التوبة منه بصفة مجملة، بأن يندم على أي ذنب ارتكبه في حياته، ويقول: اللهم إني استغفرك وأتوب إليك من جميع الذنوب.

والتوبة واجبَةٌ على كلِّ فرد أيا كان شأنه؛ لقوله تعالى:(وَتُوبُواْ إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[1].

فمن كان واقعا فِي معصية كبيرة تجِب عليه التّوبة.

ومن كان واقعا في معصية صغيرةٍ تجِب عليه التّوبة أيضا؛ لأنّ الإصرارَ على الصغيرة يصيِّرها من الكبائر، كما قال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه: (لَا صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ، وَلَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ).

بل وتشرع التّوبة حتى لمن كان مؤدِّيا للواجباتِ تاركا للمحرّمات؛ إذ لا يمكن لأحد أن يدّعي بلوغ الكمال في امتثاله للمأمورات، أو تركه للمحظورات، فالمكلَّف لا ينفك عن تقصير في طاعة، أو وقوع في خطيئة،

وفي الحديث:(كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)[1].

---

1 النور:31

ولقد كان سيد الكائنات عليه الصلاة والسلام، الذي غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يتوب إلى الله ويستغفره في اليوم أكثر من سبعين مرة؛ قال صلى الله عليه وسلم: (وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً)[2].

المطلب الثالث: شروط التوبة:

أشار الناظم إلى شروط التوبة بقوله:

(بِشَرْطِ الاِقْلاَعِ ونَفْيِ الاِصْرَارْ   وليَتلاَفَ مُمْكِناً...)

وبيانها كالآتي:

1- الإقلاع عن المعصية: وينبغي أن يكون ذلك بدافع الحياء من الله، والخوف منه جل جلاله، لا أن يترك المعصية لكونها تضر بصحته أو بماله أو بمنصبه أو بمكانته بين الناس.. فهذه لا تسمى توبة.

2- نفي الإصرار على المعصية: وذلك بأن يعزم بقلبه على أن لا يعود إلى المعصية تارة أخرى، لأن الإصرار على المعصية أكبر من المعصية نفسها،

---

1 رواه الترمذي سننه رقم 2499

2 رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب: استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة، رقم الحديث:6307

فإذا نفى الإصرار على المعصية، ثم وقع فيها تارة أخرى من غير سبق إصرار، فلا يهدم ذلك توبته الأولى، وتجب عليه التوبة من معصيته الثانية.

ومتى توفر هذان الشرطان فقد صحت التوبة وكانت توبة نصوحا، كما قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)[1].

فعن الحسن رضي الله عنه قال: (التَّوْبَةُ النَّصُوحُ: أَنْ يَهْجُرَ الْعَبْدُ الذَّنْبَ، وَهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَلَّا يَعُودَ إِلَيْهِ أَبَدًا)[2].

والتوبة النصوح تمحو الذنب مطلقا؛ لقوله تعالى: (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)[3].

وقال تبارك وتعالى:(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[4].

---

1 التحريم 8
2 رواه البيهقي في شعب لإيمان رقم 6636
3 الفرقان 70
4 الزمر 53

وقال جل ثناؤه وتقدّست أسماؤه: (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: (التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ)[2].

3- **تدارك حقوق العباد**: إذا كانت المعصية بين العبد وربه كترك الصلاة أو ارتكاب فاحشة، فيكفيه الشرطان المتقدمان.

أما إذا كانت المعصية تتعلق بحق من حقوق العباد، فإنه بالإضافة إلى ما تقدم، يشترط لصحة توبته أن يؤدي التائب حقَّ الناس، فإن كان مالاً ردَّه إليهم، وإن كان أرضاً عدَّل حدوده مع جيرانه، وإن كان غيبةً أو شتما أو طعنا في الأعراض فلا بد من طلب العفو والمسامحة ممن آذاهم وأشاع عنهم؛ لأن الله يغفر كل شيء ما عدا الإشراك به والإضرار بعباده.

وإلى هذا الشرط أشار الناظم بقوله: (وليَتلاَفَ مُمْكِناً) والتلافي معناه: التدارك.

والمراد: على التائب أن يتدارك ما أمكن تداركُه من حقوق العباد، على نحو ما ذكرنا سابقا، فإن لم يجد صاحب الحق رد الحق إلى ورثته، فإن لم يكن له ورثة استغفر له وتصدق عليه.

---

1 الشورى 25
2 رواه ابن ماجه في سننه ، كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة، ح رقم4250

4- ومن شروط التوبة أيضا أن تكون من قريب، أي قبل أن يدركه الموت، وهذا الشرط لم يشر إليه الناظم؛ وقد دل عليه قوله تعالى: (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)[1]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ)[2].

وقوله: (ذَا اسْتِغْفارْ)

أي صاحب استغفار، فـ(ذا) حال منصوب وعلامة نصبه الألف لأنه من الأسماء الخمسة، والمراد: أن حال التائب بعد تحصيل شروط التوبة أن يكون مستغفرا لذنوبه؛ فعلى التائب أن يكثر من الاستغفار، ويتضرع إلى ربه بأن يغفر ذنوبه ويقبل توبته؛ لقوله تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا)[3].

---

1 النساء 18
2 رواه الترمذي في سننه، أبواب : الدعوات، باب:99 رقم ح3537
3 نوح 10

المبحث الثاني: التقوى

قال الناظم:

وحَاصِلُ التَّقْوَى اجتِنَابٌ وَامْتَثَالْ	فِي ظَاهِــرٍ وَبَاطِنٍ بِذَا تُنَالْ
فَجَاءَتِ الأَقْسَــامُ حَـقّاً أَرْبَعَـهْ	وَهِيَ لِلسَّالِكِ سُبْلُ المَنْفَعهْ

المطلب الأول: حقيقة التقوى

1- التقوى في اللغة:

مأخوذة من الوقاية، وهي ما يقي الإنسان به نفسه من المضار، فإذا أصابه الحر مثلا اتقاه بالهروب إلى الظل، وإذا أصابه البرد اتقاه بوسائل التدفئة... على نحو ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلا قال له: مَا التَّقْوَى؟ فقَالَ أبو هريرة: (أَخَذْتَ طَرِيقًا ذَا شَوْكٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ صَنَعْتَ؟ قَالَ: إِذَا رَأَيْتَ الشَّوْكَ عَدَلْتُ عَنْهُ أَوْ جَاوَزْتُهُ أَوْ قَصُرْتُ عَنْهُ، قَالَ: ذَاكَ التَّقْوَى)[1].

يعني أن حقيقة التقوى : أن تشمر ما استطعت لطاعة مولاك، وتحترز من

---

1 رواه البيهقي في الزهد الكبير، باب: الورع والتقوى، رقم 963

الوقوع في مواطن الزلل؛ وتقي نفسك من الوقوع في المحرمات التي توقعك في المهلكات.

2- وأما التقوى في الاصطلاح الشرعي:

فقد عرفها الناظم بقوله: (وحَاصِلُ التَّقْوَى اجتِنَابٌ وَامْتَثَالْ فِي ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ)

يعني: خلاصة القول في التقوى أنها: اجتناب المنهيات التي نهى عنها الشرع ظاهرا وباطنا، وامتثال المأمورات التي أمر بها ظاهرا وباطنا.

وقيل في تعريفها أيضا: (أَنْ لا يَرَاكَ اللهُ حَيْثُ نَهَاك، وَأن لا يَفْقِدَكَ حَيْثُ أَمَرَكَ).

وقال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)[1]. قال: (حَقُّ تُقَاتِهِ: أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ)[2].

وقوله:(بِذَا تُنَالْ):

أي بهذا الاجتناب للمنهيات، والامتثال للمأمورات، ينال المؤمن التقوى ويظفر بها؛ فيكون من المتقين.

---

1 مريم 72
2 تفسير ابن كثير 2 / 86-87

وقوله:(فَجَاءَتِ الأَقْسَامُ حَقّاً أَرْبَعَهْ):

يعني إذا كانت التقوى على نحو ما ذكرنا في خلاصتها، فإنها تأتي على أربعة أقسام وهي: 1- اجتناب في الباطن. 2- اجتناب في الظاهر. 3- امتثال في الباطـــن. 4- امتثال في الظاهـــر.

المطلب الثاني: ثمار التقوى

قال الناظم: (وَهِيَ لِلسَّالِكِ سُبْلُ الْمَنْفَعَهْ) يعني: أن التقوى بأقسامها الأربعة، هي (للسالك) أي السائر إلى الله تعالى (سبل المنفعة) أي طرق المنفعة التي تنفعه في عاجله وعاقبة أمره، وتوصله إلى ربه سالما غانما.

- فبالتقوى ينجو السالك من النار؛ قال تعالى: (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) [1].

- وبالتقوى يكون من ورثة جنة النعيم؛ قال تعالى: (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً)[2].

---

1 مريم 72
2 مريم 63

– وبالتقوى تستنير بصيرته ويُسدد نظره؛ قال تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[1].

– وبالتقوى يكون من أكرم الناس وأشرفهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2].

– وبالتقوى تُدفع الكروب والنقم، وتُجلب الأرزاق والنعم؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[3].

– وبالتقوى ينال حسن العاقبة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[4].

– وبالتقوى يكون عند الله من المقبولين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[5].

---

1 الانفال 29
2 الحجرات 13
3 الطلاق 3
4 يوسف 90
5 المائدة 27

- وبالتقوى يحفظ الله له ذريته من بعده؛ قال تعالى: (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا)[1].

والحاصل أن التقوى هي جماع كل خير، كما قال الناظم: (وَهِيَ لِلسَّالِكِ سُبْلُ المَنْفَعَةْ).

---

1 النساء 9

المبحث الثالث: حفظ الجوارح من المحرمات

قال الناظم:

يَغُضُّ عَينَيْهِ عَنِ الْمَحَـــارِمِ	يَكُـــــفُّ سَمْعَـهُ عَـنِ الْمَـآثِمِ
كَغِيبَةٍ نَمِيمَـــةٍ زُورٍ كَذِبْ	لِسَانُـهُ أَحْـرَى بِتَرْكِ مَا جُلِـــبَ
يَحْفَظُ بَطْنَهُ مِـنَ الحَـــرَامِ	يَتْرُكُ مَـــا شُبِّــــــهَ بِاهْتِـمَامِ
يَحْفَظُ فَرْجَهُ وَيتَّقِي الشَّهِيدْ	فِي البَطْشِ وَالسَّعْيِ لِمَمْنُوعٍ يُرِيدْ

المطلب الأول: معنى الجوارح:

الجوارح جمع جارحة، والمراد بها الكواسب التي يكتسب بها العبد أفعاله، وسُميت هذه الكواسب جوارح؛ لأن العبد يجترح بها الحسنات والسيئات، أي يكتسبها؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[1]

وعددها سبعة وهي: اللسان، والسمع والبصر، واليدان والرجلان، والبطن والفرج، فهي بعدد أبواب جهنم؛ لأن العبد إنما يردها بما كسبت جوارحه؛

---

1 الجاثية 21

قال الحق تبارك وتعالى: (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[1].

وقال تعالى: (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: (وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ)[3].

وفي ما يلي تفصيل حفظ الجوارح كما ذكرها الناظم رحمه الله:

المطلب الثاني: غض البصر عن المحارم:

وإليه أشار الناظم بقوله: (يَغُضُّ عَينَيْهِ عَنِ الْمَحَارِمِ)؛ لقوله تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ...)[4].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٌ؛

---

1 النور 24
2 الإسراء 36
3 رواه الترمذي في سننه، باب: ما جاء في حرمة الصلاة ، رقم الحديث:2616
4 النور 30

فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ أَثَابَهُ جَلَّ وَعَزَّ إِيمَانًا يَجِدُ حَلاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ)[1]

فيجب على المؤمن أن يكف بصره عن النظر إلى جميع المحارم، كالنساء الأجنبيات، والعورات، والأفلام الإباحية، والصور العارية، وما أشبه ذلك كالنظر في كتب الغير، وسائر خصوصياتهم، بغير إذنهم.

وبدأ الناظم بغض البصر؛ لأن النظر هو أصل عامّة الشرور والمصائب.

كما قال الشاعر الحكيم:

كُلُّ الْحَـوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَـرِ * وَمُعْظَـمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّـرَرِ

كَمْ نَظْرَةٌ بَلَغَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا * كَمَبْلَغِ السَّهْمِ بَيْنَ الْقَـوْسِ وَالْوَتَرِ

وَالْعَبْدُ مَا دَامَ ذَا طَـــرْفٍ يُقَلِّبُهُ * فِي أَعْيُنِ الْغِيدِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطَـرِ

يَسُـــرُّ مُقْلَتَهُ مَا ضَــــرَّ مُهْجَتَهُ * لَا مَرْحَـبًا بِسُــــرُورٍ عَادَ بِالضَّـرَرِ

---

1 رواه الحاكم في المستدرك، كتاب : الرقائق، ح رقم 7875. وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

المطلب الثالث: كف السمع عن المآثم:

وإليه أشار الناظم بقوله: (يَكُـفُّ سَمْعَهُ عَـنِ الْمَآثِمِ) أي يجب على المؤمن أن يكف سمعه عن كل ما يأثم بسماعه؛ ومثَّل لذلك بقوله: (كَغِيبَةٍ نَمِيمَةٍ زُورٍ كَذِبْ) وقس على ذلك ما أشبهه، كالموسيقى والغناء، وكالكلام الفاحش والطعن في أعراض الناس، فكل ذلك يحرم الإصغاء إليه ويجب الإعراض عنه؛ لقوله تعالى:(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)[1].

وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)[2].

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله: (كل ما حُرِّم قولُه حُرِّم الإصغاءُ إليه)[3].

وقال الشافعي رحمه الله: (إِنَّ الْمُسْتَمِعَ شَرِيكُ الْقَائِلِ)[1]. فإن استمع لقائلٍ خيرا شاركه في أجره، وإن استمع لقائلٍ شرا شاركه في إثمه.

---

1 المؤمنون 3
2 الفرقان 72
3 إحياء علوم الدين 1 / 235

المطلب الرابع: كف اللسان عن المآثم:

وإليه أشار الناظم بقوله: (لِسَانُهُ أَحْرَى بِتَرْكِ مَا جُلِب)

يعني: أن لسان المؤمن أولى وأحقُّ بأن يترك (مَا جُلِب) أي ما جلبناه وأتينا به في كف السمع عن المآثم، وهو ما ذكرناه في قولنا:

(كَغِيبَةٍ نَمِيمَةٍ زُورٍ كَذِبْ).

وإنما كان اللسان أجدر بترك ذلك؛ لكونه أشدَّ الجوارح خطرا؛ لقوله صلى الله عليه وسلم:(وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ)[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)[3].

فيجب على المؤمن أن يكف لسانه عن جميع المآثم؛ وخاصة الكبائر الأربع التي نبه إليها الناظم، وهي الغيبة والنميمة وشهادة الزور والكذب.

---

1 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم 9 / 1 223

2 رواه الترمذي في سننه، باب: ما جاء في حرمة الصلاة ، رقم الحديث:2616

3 رواه مالك في الموطأ، كتاب: اللباس، باب: ما جاء في الطعام والشراب، ح رقم 3434/ 725

وفي ما يلي تعريفها وبيان ما يتعلق بها:

الفرع الأول: الغيبة: وهي أن تقول عن أخيك المؤمن ما لا يرضى أن يُقال عنه، مما هو موجود فيه حقا، فإن قلت عنه ما ليس فيه فهو بهتان، وهو أعظم من الغيبة؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ)[1].

والغيبة محرمة بالكتاب والسنة والإجماع، قال الله تعالى: (وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الْغِيبَةُ أَشَدُّ مِنَ الزِّنَا. قِيلَ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: الرَّجُلُ يَزْنِي ثُمَّ يَتُوبُ، فَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّ صَاحِبَ الْغِيبَةِ لَا يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَغْفِرَ لَهُ صَاحِبُهُ)[1].

---

1 رواه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الغيبة، ح رقم 70 - (2589)
2 الحجرات 12

وذكر العلماء سبعة مواضع، تباح فيها الغيبة على سبيل الاستثناء والترخص، وقد جمعها بعضهم في قوله:

تَظَلَّمْ وَاسْتَغِثْ وَاسْتَفْتِ حَذِّرْ وَعَرِّفْ بِدْعَةً فِسْقَ الْمُجَاهِرْ

وبيانها كالآتي:

1- التَّظَلُّمُ: وهو أن يشكو المظلوم ممن ظلمه، ويذكره باسمه عند الحاكم ونحوه ممن له القدرة على ردعه.

2- الاستغاثة: كأن يستغيث مكروب بمن له القدرة على إغاثته، ويذكر له المتسغاث منه.

3- الاستفتاء: كأن يستفتي أحد فقيها عن كيفية الخلاص من خصمه، ويذكره له باسمه.

4- التحذير: كأن يحذر الناس من مشعوذ معين، أو يحذر أحدٌ صديقَه أو جارَه من لص معين يسطو على أموال الناس.

5- التعريف: كأن تبين حال شخص لمن سألك عنه؛ ليزوجه ابنته، أو ليقرضه مالا، أو ليستأجره، أو ليقيم معه مشروعا ما.

---

1 رواه الطبراني في الأوسط، باب: الميم (من اسمه محمد) ح رقم 6590

6- المبتدع: فيجوز ذكره باسمه؛ ليحذره الناس على دينهم، فلا يأخذوا العلم عنه، كالمجسمة والرافضة.

7- المجاهر بفسقه: فيجوز ذكره بما يجهر به من فسق ،كالسرقة أو تعاطي المخدرات، لمن له القدرة على تغيير منكره، لا من باب التشفي والتعيير.

الفرع الثاني: النميمة: وهي نقل الكلام من شخص إلى شخص؛ بغرض الإفساد بينهما، وهي محرمة تحريما مغلظا، ولو كان الكلام المنقول حقا وصدقا؛ بالنظر إلى ما يترتب عليها من فساد كبير، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ)[1].

وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن اتباع النمام في سيرته وأقواله، فقال جل جلاله: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ).

وفي ذكر الزنيم بعد النمام إيماءٌ إلى أن النمام غالبا ما يكون زنيما، أي ابن زنا، وقد ذكر ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى في الزواجر:

1 رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: غلظ تحريم النميمة، ح رقم 168 - (105)

أن عبد الله بن المبارك رضي الله عنه استنبط من ذكر الزّنيم بعد النّمّام: أنّ ولد الزّنا لا يكتم الحديث، فمشيه بالنّميمة دليل على أنّه ولد زنا[1].

ويستثنى من تحريم النميمة إذا تضمنت مصلحة للمنموم إليه، كأن ينقل إلى مسلم معصوم أن فلانا يهم بقتله أو أخذ ماله أو التعرض لأهله... فإنها تباح في هذه الحال، بل قد تستحب أو تجب؛ لكونها وسيلة إلى درء مفاسد خطيرة لا تُدرأ إلا بها.

الفرع الثالث: شهادة الزور: وهي أن يشهد الإنسان بما لا علم له به، ولو كانت شهادته موافقة للواقع، كأن يشهد أن فلانا قد سرق، وهو لا يعلم إن كان قد سرق أم لا، وإنما يشهد بناء على ما قيل له.

وأولى بالحرمة أن يشهد كاذبا متعمدا بخلاف ما يعلم، كأن يشهد بأن فلانا قد سرق وهو يعلم بأنه لم يسرق.

وشهادة الزور من أكبر الكبائر، وقد جاءت مقترنة بالإشراك بالله في القرآن والسنة؛ فقال الله تعالى: (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)[2].

---

1 الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي، 2 / 34
2 الحج 30

وروى البخاري عن أبي بكرة عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ ثَلاَثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ – وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ – أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ)[1].

وتكراره صلى الله عليه وسلم لشهادة الزور هو لأجل المبالغة في التحذير منها.

الفرع الرابع: الكذب: وهو أن يخبر بخلاف الواقع عامدا، ولو كان شاكا في وقوع ما أخبر به، فينبغي للمكلف أن لا يحدث إلا بما علمه قطعاً، أو نقل إليه نقلاً متواتراً، أو سمعه وتأكد من صحته؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّث بِكُلِّ مَا سَمِعَ)[2].

والكذب من كبائر الذنوب والعصيان؛ لقوله تعالى:(ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)[3].

---

1 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور، ح رقم 2654
2 رواه مسلم في مقدمة صحيحه، باب: النهي عن الحديث بكل ما سمع.
3 آل عمران 61

وقوله صلى الله عليه وسلم: (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا)[1].

والكذب من علامات النفاق؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ)[2]

ويحرم الكذب ولو كان على سبيل المزاح؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ)[3].

---

1 رواه مسلم في في كتاب البر والصلة والآداب، باب: قبح الكذب.. ح رقم 105 - (2607)
2 رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق، ح رقم 107- (59)
3 أخرجه أبو القاسم تمام في الفوائد رقم 603 . وأخرجه أيضا الترمذي والنسائي وأبوداود وأحمد ولكن بلفظ مختلف.

ويستثنى من تحريم الكذب إذا تضمن مصلحة شرعية راجحة؛ فإنه يباح في هذه الحال أو يستحب أو يجب؛ حسب حجم المصلحة التي يُراد تحصيلها، وحسب حجم المفسدة التي يُراد دفعها.

ومن حالات وجوب الكذب: كأن يختبئ عنده رجل معصوم هارب من ظالم يريد قتله، أو تختبئ عنده امرأة يراد الاعتداء عليها، أو كانت عنده وديعة وأتى ظالم يريد أخذها...

ففي كل ذلك يجب عليه الكذب، وهو هاهنا أفضل من الصدق لتعلقه بحفظ النفس والعرض والوديعة..

وفي مثل هذه الأحوال وشبهها يثاب الكاذب على كذبه، ولو صدق في مثل هذه المواطن لكان آثما، إثم المتسبب في وقوع تلك المفاسد.

ومن حالات استحباب الكذب أن يكذب الرجل لأجل إصلاح ذات البين، أو يكذب على زوجته لأجل إصلاحها.

وهذه الأحكام الإستثناية وشبهها كما تقدم في النميمة، مبنية على قواعد مقاصد الشريعة، في الموازنة بين المصالح والمفاسد المختلطة، والتي تقتضي تحصيل الراجح وإهمال المرجوح.

وهو ما أشرت إليه في منظومتي المقاصدية فقلت:

وَإِنْ صَــلَاحٌ بِفَسَـــادٍ اِمْتَزَجْ   فَأَهْمِلِ الْمَغْلُوبَ وَالْعَكْسَ انْتَهِجْ
لَوْ لَمْ يَكُ المَغْلُوبُ مُهْمَلاً لَزِمْ   جَلْبٌ مَــعَ الدَّرْءِ وَنَفْيُ ذَا حُتِمْ
فَادْرَأْ مَا فَسَـــادُهُ قَــدْ غَلَبَا   كَتَرْكِ مَعْـذُورٍ لِغُسْـــلٍ وَجَبَا
وَاجْلُـبْ مَا صَــلاَحُـهُ تَرَجَّحَا   كَكَـذِبٍ لِأَجْـــلِ صُلْـحٍ مُـدِحَا

المطلب الخامس: حفظ البطن من الحرام:

وإليه أشار الناظم بقوله:

يَحْفَظُ بَطْنَهُ مِنَ الحَرَامِ   يَتْرُكُ مَا شُبِّهَ بِاهْتِمَامِ

فيجب على المؤمن أن يحفظ بطنه[1] من الحرام، كأكل أموال الناس بالباطل، وأكل الربا وكل كسب خبيث، كالاختلاس من المال العام، والمتاجرة في المخدرات ونحوها من المحرمات......

لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (طَلَبُ الْحَلَالِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)[3].

وقال الشيخ ميارة رحمه الله: (أن الانتفاع بالأعمال [الصالحة] لا يُتوصّل إليه إلا بعد إصلاح الرزق واكتسابه من حله) [4].

وقوله: (يَتْرُكُ مَا شُبِّهَ بِاهْتِمَامِ)

يعني: يستحب للمؤمن أن يترك كل كسب فيه شبهة، احتياطا لدينه وعرضه من الوقوع في المحرمات؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: (فَمَنِ اتَّقَى

---

1 لا خصوصية للبطن بالحفظ، بل يجب عليه حفظ سائر جسده من الحرام، فلا يسكن إلا حلالا، ولا يركب إلا حلالا ، ولا يلبس إلا حلالا...
2 البقرة 172
3 رواه الطبراني في الأسط، باب: الميم (من اسمه مسعود) ح رقم 8610
4 الدر الثمين والمورد المعين 568

الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ)[1].

وقوله: (بِاهْتِمَامِ)

يعني : ينبغي أن يكون تركه للمحرمات والمشبهات بنية الامتثال لأمر الله، ليحصل له الثواب على تركها؛ لأن المتروكات لا يحصل الثواب على تركها إلا بالنية، فمن ترك محرماً أو متشابهاً بنية الامتثال أثيب على تركه، ومن تركه دون أن يخطر بباله فلا ثواب له.

المطلب السادس: حفظ الفرج من الحرام:

وإليه أشار الناظم بقوله: (يَحْفَظُ فَرْجَهُ..)؛ فيجب على المؤمن أن يحفظ فرجه من جميع المحرمات؛ من زنا أو لواط أو طء في دبر أو حيض.. لقوله تعالى: ((قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ))[2].

---

1 رواه مسلم، في كتاب: المساقاة، باب: اخذ الحلال وترك الشبهات، ح رقم 107- (1599)
2 النور 31

وبين جل جلاله أن حفظ الفروج سبيل إلى مغفرة الذنوب ونيل الأجور العظيمة فقال تعالى: ((وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا))[1].

وضمن رسول الله الجنة لمن يحفظ لسانه وفرجه فقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ)[2].

وامتدح الله تعالى المؤمنين بحفظ فروجهم، مبينا أن حفظ الفروج من أسباب الفلاح ووراثة الفردوس الأعلى، فقال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ – إلى قوله تعالى – وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ– إلى قوله تعالى – أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[3].

وقد استدل مالك رحمه الله بهذه الآية على حرمة الاستمناء باليد، ووجه الاستدلال بها: أن المستمني بيده قد ابتغى وراء ذلك، أي وراء الزوجة وملك اليمين.

---

1 الاحزاب 35
2 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقائق، باب: حفظ اللسان، ح رقم6474
3 المؤمنون 11

وذهب ابن حزم وأحمد في رواية إلى إباحته مطلقا؛ لأنه مما لم يفصله الله لنا وقد قال تعالى: ((وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ))[1]. ولأنه داخل في عموم دائرة المسكوت عنه الذي قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام: ((وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا))[2].

والاستمناء ليس من أخلاق الرجال، ولا يصح إطلاق القول بجوازه، والصحيح ما ذكره الأحناف من أن جوازه مقيد بخمسة شروط وهي:

1- أن يكون المستمني غير متزوج.

2- أن لا تتيسر له أسباب الزواج.

3- أن يخشى على نفسه الوقوع في الفاحشة، ولذات العلة أباحه القرضاوي رحمه الله للشباب المقيمين في البلدان الغربية كأوربا وأمريكا.

4- أن يكون دفعا للشهوة لا جلبا لها، بأن يلجأ إليه عند ثورانها لا عند سكونها.

5- أن لا يتخذه عادة وديدنا بحيث يدمن عليه.

---

1 الأنعام 119

2 رواه الدار قطني في كتاب الرضاع رقم 4396

المطلب السابع: حفظ اليدين والرجلين:

وهو ما أشار اليه الناظم بقوله:

.....وَيتَّقِي الشَّهِيدْ فِي البَطْشِ وَالسَّعْيِ لِمَمْنُوعٍ يُرِيدْ

أي يتقي الله عز وجل، الشهيد على سائر أحواله، والمطّلع على سره وعلانيته، في البطش بيديْه، وفي السعي برجليْه، لما يريد من الممنوع أي المحظور عليه.

- فلا يبطش بيديه أي لا يأخذ بهما ما لا يحل له من أموال، ولا يعتدي بهما على إنسان ظلما وعدوانا، ولا يؤذي بهما حيوانا، أو يذبح طائرا عبثا، أو يقطع شجرة لغير مصلحة شرعية، ولا يكتب بهما شرا، كالصحفيين أو الفيسبوكيين الذين يكتبون بأديهم ما يفسد الدين والعباد والبلاد، وكأولائك يكتبون الوشايات الكاذبة ويرسلون بها إلى المسؤولين لإلحاق الأذى بالناس.

- ولا يسعى برجليه إلى فعل ما حُرّم عليه؛ لأن يديه ورجليه أمانات قد استرعاه الله إياها، فيجب عليه أن يصونها من الحرام، وأن يستخدمها في مرضات الله تعالى؛ لأنه سيُسأل عنها يوم القيامة؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ،

وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ)[1].

ومحل الشاهد: (وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ) أي فيم أضعفه وبدَّده،

ومنه يداه ورجلاه، فإن أبلاه في طاعة مولاه فقد سعد ونجا، وإن أبلاه في معصية مولاه فقد شَقِي وهلك، وستشهد عليه يداه ورجلاه وسائر جوارحه يوم القيامة بما فعل بها... قال الله تعالى: (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وجوارح العبد كما ستشهد عليه بما عمل بها من سوء، فكذلك ستشهد له بما عمل بها من خير ، كما قال الشاعر الحكيم:

كَتَبْتُ وَقَدْ أَيْقَنْتُ يَوْمَ كِتَابَتِي بِأَنَّ يَدِي تَفْنَى وَيَبْقَى كِتَابُهَا

فَإِنْ كَتَبَتْ خَيْراً سَتُجْزَى بِمِثْلِهِ وَإِنْ كَتَبَتْ شَرًّا عَلَيْهَا حِسَابُهَا

---

1 رواه الترمذي في سننه، أبواب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب في القيامة، ح رقم 2417.

المبحث الرابع: إيقاف الأمور حتى يُعلم حكم الله فيها

قال الناظم:

وَيُوقِفُ الأمُورَ حَتَّى يَعْلَمَاَ   ماَ الله فِيهِنَّ بِهِ قَدْ حَكَمَا

يعني: لا يقدم على أي فعل، من العبادات أو المعاملات، حتى يعلم حكم الشرعِ فيه؛ لقوله تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)[1].

أي لا تتبع ما لا علم لك به.

ولقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)[2].

فلا يحل لمؤمن أن يقدم على عمل قبل معرفة حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في ذلك العمل؛ إما بالنظر في الكتب العلمية الموثوقة، إن كان أهلا للنظر.

وإما باستفتاء أهل العلم إن كان لا يعلم؛ لقوله تعالى: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)[3].

1الإسراء 36
2الحجرات 1
3 النحل 43

والحاصل: أن ما ذكره الناظم يعتبر قاعدة عامة، تتفرع عنها فروع كثيرة من أبواب مختلفة..

- فمن أراد أن يتاجر وجب عليه أن يتعلم ما يجوز وما لا يجوز من أمور البيع والشراء، وقد قال سيدنا عمر رضي الله عنه: (**لاَ يَبِعْ فِي سُوقِنَا إِلاَّ مَنْ قَدْ تَفَقَّهَ فِي الدِّينِ**)[1].

- ومن أراد أن يُؤَجّر أو يزارع أو يقيم شراكة تجارية أو ينشئ مشروعا ما... وجب عليه أن يتعلم أحكام تلك المعاملات.

- ومن أراد يصلي أو يزكي أو يصوم أو يحج أو يعتكف أو يتصوف.. وجب عليه أن يتعلم أحكام تلك العبادات؛ ليؤديها هلى الوجه المشروع.

- ومن أراد أن يتزوج وجب عليه أن يتعلم أحكام الزواج وآدابه وحقوقه...

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**)[2].

---

1 رواه ابن ماجه، باب: فضل العلماء... ح رقم 224

المبحث الخامس: تطهير القلب

قال الناظم:

يُطَّهِـــــــرُ الْقَلْبَ مِـنَ الرِّيـاءِ	وَحَسَـدٍ عُجْـبٍ وكُـــــلِّ داءِ
وَاعْلَمْ بأَنَّ أَصْلَـــلَ ذِي الآفَاتِ	حُبُّ الرِّياسَـــــةِ وَطَـرْحُ الآتِي
رَأْسُ الخَطَايا هُوَ حُبُّ الْعاجِلَهْ	لَيْسَ الدُّوَا إلاّ فِي الاِضْطِرَارِ لَهْ

بعد أن فرغ الناظم من حفظ الجوارح الظاهرة من الحرام، شرع الآن في بيان تطهير القلب من علله.

والجوارح التي تقدم ذكرها كلُّها تتلقى الأوامر من القلب، فهو ملكها والموجّه لها، والمسؤول عن جميع حركاتها، وعلى صلاحه يتوقف صلاحها؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ)[1].

1 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: من استبرأ لدينه، رقم الحديث:52

ونجاة المرء يوم القيامة متوقفة على سلامة قلبه، وبراءته من كل الأمراض المعنوية؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

وقد ذكر الناظم جملة من العلل القلبية، التي ينبغي للمؤمن أن يجتهد في تطهير قلبه منها؛ وهي علل خطيرة حاجبة عن الله تعالى، ولا يستقيم معها أي عمل.

المطلب الأول: تطهير القلب من الرياء

قال الناظم: (يُطَهِّرُ الْقَلْبَ مِنَ الرِّياءِ) وهو ضد الإخلاص، وحقيقته: أن يعمل العمل لله وللناس، ويُسمى رياء الشرك، أو يعمله للناس خاصة، ويسمى رياء الإخلاص، وقد يحدث الرياء قبل الشروع في العمل، أو بعد الشروع فيه، إما إن حدث بعد الفراغ منه فلا يضر.

ويلحق بالرياء التسميع، وهو أن يقول: عملت كذا وكذا من الطاعات، ومنه التشهير بالطاعات والأعمال الخيرية في مواقع التواصل، بغرض التسميع بها لا غير.

وكل ذلك موجب للإثم، ومحبط للعمل ولو كان موافقا للشرع، فإن الله تعالى إنما يقبل من العمل أخلصَه وأصوبَه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال

1 الشعراء 89

الله تبارك وتعالى: (أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ،مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الْيَسِيرُ مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ)[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ)[3].

وقد تقدم معنى التسميع، وأما معنى: (سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ) فقال سيدنا النووي رضي الله عنه: قيل: سمّع الله به الناس يوم القيامة؛ أي فضحه بينهم، وقيل: سمَّع به الناس في الدنيا، وكان ذلك حظه من عمله، وقيل: أسمعه المكروه في حياته[4].

ومتى خالط الرياء الأعمال الصالحة، أفسدها وأحالها إلى معصية تستوجب الويل والثبور، كما قال الله تعالى: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)[5].

---

1 رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله، ح رقم 46 - (2985)
2 رواه الحاكم في المستدرك، كتاب: الإيمان، ح رقم 4
3 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقائق، باب: الرياء والسمعة، ح رقم 6499
4 شرح مسلم للنووي (بتصرف) 18 / 116
5 سورة الماعون

فالصلاة التي هي من أعظم الطاعات، صارت بالرياء معصيةً يستحق صاحبها الويل والعياذ بالله.

والرياء من صفات المنافقين؛ الذين قال الله في شأنهم: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

واعلم بأن الباعث على الرياء ثلاثة أمور:

1- جلب المنفعة كطلب المحمدة عند الناس.
2- ودفع المضرة كاتقاء مذمة الناس.
3- وتعظيم الخلق.

وسبيل الخلاص من كل ذلك أن تستحضر عظمة رب العالمين، وضَعْفَ ما سواه من المخلوقين، فتغيبَ نظرهم إليك بنظر الخالق إليك، بحيث تعتبرهم كالعدم أو كالجمادات التي لا تسمع ولا ترى، فإن الخلق لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، فأنى لهم أن يملكوا ذلك لغيرهم، فإن هم مدحوك لم ينفعوك، وإن ذموك لم يضروك، فالله وحده هو النافع وهو الضار، وكل الخلق نواصيهم بيد الواحد القهار.

---

1 النساء 142

فلكي تتخلص من مراءاتهم عليك أن تعتبر وجودهم وعدمهم سواء، وأن تغيب إقبالهم عليك بيقينك بأن الله مطلع عليك، وقد قيل: لن يلغ أحد مرتبة الإخلاص، حتى يستوى عنده المدح والذم والسر والعلانية.

قال سيدنا القشيري رضي الله عنه مبينا حقيقة الإخلاص: (**الإخلاص إفراد الحق سبحانه فِي الطاعة بالقصد، وَهُوَ أَن يريد بطاعته التقرب إِلَى اللَّه سبحانه دُونَ شَيْء آخر، من تصنع لمخلوق، أَوِ اكتساب محمدة عِنْدَ النَّاس، أَوْ محبة مدح من الخلق، أَوْ معنى من المعاني سِوَى التقرب بِهِ إِلَى اللَّه تعَالَى..**)[1].

وقال الفضيل ابن عياض رضي الله عنه: (**تَرْكُ الْعَمَلِ لِأَجْلِ النَّاسِ رِيَاءٌ، وَالْعَمَلُ لِأَجْلِ النَّاسِ شِرْكٌ، وَالْإِخْلَاصُ أَنْ يُعَافِيَك اللَّهُ مِنْهُمَا**)[2].

---

1 الرسالة القشيرية 359

2 الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي، 1 / 69

فعلى المؤمن أن يجاهد نفسه باستمرار، للتخلص من هذه العلة المحبطة للعمل، والحاجبة عن الله تعالى، وأن يُخلص عمله لله وحده؛ عملا بقوله تعالى:(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ)[1].

فإن الأعمال كلها لا تقوم ولا تستقيم إلا بالإخلاص لله وحده، فالإخلاص هو جوهر العبادة، وهو شرط قبول العمل، فهو بمنزلة الأساس للبنيان، وبمنزلة الروح للجسد.

فلا أجر ولا ثواب على أي عمل مهما عظم إلا بالإخلاص، ويكفي في ذلك قوله تعالى: (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً)[2].

المطلب الثاني: تطهير القلب من الحسد

الحسد شر مستطير، ومرض نفسي خطير، وقد عرفه العلماء بأنه: (تألُّم الْقلب بِنِعْمَة الله على عباده، وَتمنِّي زَوَالِهَا عَن الْمُنعَم عَلَيْهِ).

فالحَسودُ قلبه مشحون بالحقد والكراهية، فإذا رأى نعمة على أحد ضاق بها ذرعا، وطوى جوانحه على غيظ مكتوم، وعاش مكدّرا منغصا، فلا يهدأ له

---

1 البينة 5
2 الكهف 110

بال، ولا يستريح له ضمير، إلا إذا زالت النعمة وتحقق الإخفاق لصاحبها، فهو لا يطيق أن يرى في الناس من هو أكثر منه مالا وولدا، أو أفضل علما، أو أجل قدر، أو أرفع مكانة...

ومن علامات الحسود: أَن يتملَّق إلى المحسود في حضوره، ويغتابه في غيابه، ويفرح عند مصابه، ويغتم عند سروره ورخائه..

وقال المنفلوطي: (وجه الحاسد ميزان النعمة ومقياسها: فإن أردت أن تزن نعمة وافتك فارم بخبرها في فؤاد الحاسد، ثم خالسه نظرة خفية, فحيث ترى الكآبة والهم فهناك جمال النعمة وسناؤها)[1].

والحسد من الذنوب العظام، التي نهى الله عنها، وحرمها في كتابه وعلى لسان رسوله عليه الصلاة والسلام؛ فقال الله سبحانه وتعالى: (وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)[2].

أي لا تتمنوا زوال النعم على غيركم وانتقالهَا إليكم، ولا بأس بتمنّي مثلها من غير تمنّي زوالها عن الغير؛ ولذلك قال تعالى في نفس الاية: (وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِنْ فَضْلِهِ).

---

1 النظرات للمنفلوطي 2 / 70
2 النساء32

وأمرنا سبحانه وتعالى بالتعوذ من شر الحاسدين، فقال جل ثناؤه: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ – إلى قوله تعالى – وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ).

وبين لنا سبحانه وتعالى أن الحسد من صفات شرار الخلق، وهم اليهود، فقال عز وجل: (دَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ)[1].

بل إن الحسد صفة شيطانية، وهو أول ذنب عُصي به الله تعالى، فحينما خلق الله آدم عليه السلام، أمر الملائكة بالسجود له تشريفا وتكريما، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس امتنع عن السجود حسدا وتكبرا، وبرر عصيانه وعدم سجود بقوله: (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)[2].

كما نهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن الحسد فقال: (لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عبادَ الله إخوانا)[3].

---

1 البقرة 109
2 ص 76
3 رواه البخاري في صحيحه رقم 6065

وحذرنا من العواقب الوخيمة لهذه الآفة الخطيرة فقال عليه الصلاة والسلام: (الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ، كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ)[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: (وَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ: الْإِيمَانُ وَالْحَسَدُ)[2].

فالحسد معصية كبيرة تنافي الإيمان وتناقضه، وتستئصل الحسنات من جذورها، وما حلت في قلب إلا أظلم وانتكس، وحُرم صاحبه من السعادة والراحة النفسية، ومن الهداية وقبول الحق، ومن جميع الخيرات في عاجله وعاقبة أمره...

فما لُعن إبليس وطرد من رحمة الله الواسعة إلا بسبب الحسد؛ (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)[3].

وما حُرم كفار قريش من قبول الحق والاهتداء بدعوة الإسلام، إلا بسبب حسدهم لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)[4].

---

1 رواه ابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: الحسد، ح رقم 4210
2 رواه النسائي في السنن الكبرى رقم 4360
3 ص 76
4 الزخرف 31

وما قتل قابيل أخاه هابيل إلا بسبب الحسد؛ ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾[1].

وما رمى أبناء يعقوب أخاهم يوسف في الجب إلا بسبب الحسد؛ ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[2].

فالحسد علة نفسية خطيرة، تغلي في قلب صاحبها كغلي الحميم، فإن لم ينفّس عنها الحاسد بإذاية المحسود فجرت كيانه؛ ولأجل ذلك تجد الحسود دوما يعبر عن الأشياء الجميلة بما يشينها؛ ليريح ضميره، أو يبرر جنايته على المحسود، كما قال القائل:

كَضَرائِرِ الحَسناءِ قُلنَ لِوَجهِها   حَسداً وَبَغياً إِنَّهُ لَذميمُ

1 المائدة 27
2 يوسف 8

فالمعلول بهذا الداء لا هم له إلا ترصد خطوات المحسود، والتعليق عليها بما يشينها، ومعظم جنايات اللئام على الكرام مردها إلى هذه العلة المنتنة، وهي في النهاية لن تضرّ إلا أصحابَها؛ كما أن الشوك لا يحصده إلا من زرعه.

ومن الحكم المشهورة: (**الحسود لا يسود**). وقال بعضهم: (**ليست فِي خلال الشر خلة أعدل من الحسد؛ تقتل الحاسد قبل المحسود**).

والحاسد وإن لم يلحق ضررا بالمحسود، فإنه قد أساء الأدب مع الله تعالى، فكأنه يعترض على حكمه، ولم يرض بقسمته بين عباده؛ لأن الله هو المعطي وهو المانع، وهو المنعم على من يشاء من عباده، وهو القائل:(**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**)[1].

ولله در القائل:

ألا قل لمن بات لي حاسدا   أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في حكمه   لأنك لم ترض لي ما وهب

فجزاك ربي بأن زادني   وسدَّ عليك وجوهَ الطلب

---

1 النحل 53

فنسأل الله تعالى أن يطهر قلوبنا من الحسد، وأن يعيذنا من شر حاسد إذا حسد.

فعلى السالك أن يجاهد نفسه باستمرار للتخلص من داء الحسد، ومن ذلك أن يكثر من ذكر الموت، قال أبو الدرداء: [مَا أَكْثَرَ عَبْدٌ ذِكْرَ الْمَوْتِ إِلَّا قَلَّ فَرَحُهُ وَقَلَّ حَسَدُهُ]

وأن يرضى بقدر الله وقسمته بين عباده، عالما بأنه لن يناله في هذه الدنيا الحقيرة إلا ما كُتب له، وقد أحسن من قال شعرا:

ورأيتُ الرِّضا يخفِّف أثقا لي ويُلقي على المآسي سُدولا

والذي أُلهم الرِّضا لا تراهُ أبدَ الدهر حاسداً أو عَذولا

وأن يخرج حب الدنيا من قلبه، فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة، والتكالب عليها أساس كل بلية... وقد قيل: (الدنيا جيفة وطلابها كلاب).

ولله در الإمام الشافعي إذ يقول:

ومن يَذقِ الدنيا فإني طَعِمْتُها وسيق إلينا عَذْبُها وعذابُها

فلم أرها إلا غُروراً وباطلاً كما لاح في ظهر الفَلاة سَرابُها

وما هي إلا جِيفةٌ مُسْتحِيلةٌ عليها كلابٌ هَمُّهنَّ اجتِذابُها

فإن تجتنْبها كنت سِلْما لأهلها وإن تجتذبْها نازعتك كلابُها

واعلم بأن الحسد غير الغِبْطة، فالحسد مذموم كما تقدم، وأما الغبطة فممدوحة، وهي: أن يتمنى أن يُعطى مثلَ ما أُعطِيَ غيرُه من نعمة، دون أن يتمنى زوالَها عنه، وذلك معنى قوله صلى الله عليه وسلم:(لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ) رواه مسلم

المطلب الثالث: تطهير القلب من العُجْبِ

وهو أن يُعجب الإنسان بنفسه، بسبب ما أوتي من علم أو جاه أو مكانة أو مال أو أولاد أو نسب أو جمال أو قوة... بحيث يفرح بذلك ويطمئن إليه، وينسبه إلى نفسه، وينسى أنه عطية من الله تعالى، لو شاء لسلبها منه في أي لحظة، كما قال الله تعالى في شأن قارون: (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)[1].

أما إذا كان غير مطمئن إلى تلك النعم، وكان خائفا على تكدّرها أو زوالها بالكلية، فلا يكون معجبا.

---

1 القصص 78

وكذلك إذا كان فرحا بتلك النعم من حيث أنها عطية من الله منَّ بها عليه، ولم ينسبها إلى نفسه هو، فلا يكون معجبا أيضا.

قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله: (**العجب هو استعظام النعمةِ والركونُ إليها مع نسيانِ إضافتِها إلى المُنْعِمِ**)[1].

وللعجب آفات خطيرة، منها:

1- أنه يؤدى إلى الكبر والفخر والاستعلاء على الخلق، حتى يرى المعجب نفسه أنه أفضل من يمشي على الأرض.

2- ومن آفاته أنه يعمي عن ملاحظة عيوب النفس، ويؤدي إلى نسيان الذنوب، والعمى عن ملاحظة عيوب النفس يحول دون إصلاحها وتطهيرها من صفاتها المذمومة، ونسيان الذنوب يؤدي إلى عدم التوبة منها، وما تذكره منها استصغره واستهان به وظن أنه مغفور له.

3- ومن آفاته استعظام العبادات والطاعات، وإذا استعظم طاعاتِه غفل عن آفاتها فلم يسع إلى إصلاحها، وتنقيتها مما لا تخلو منه غالبا كالرياء ونحوه.

4- ومن آفاته أنه يؤدي إلى الغرور والأمن من مكر الله وعذابه، فيظن نفسه أن له مكانةً عند الله، وأن له عنده حقا بأعماله، فيمنُّ بها على ربه، وينسى أنها عطية من الله منَّ بها عليه.

---

1 إحياء علوم الدين، 3 / 371

ولهذا كان العجب أكبر من الزنا وشرب الخمر والفرار من الزحف... ومما يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ الْعُجْبَ الْعُجْبَ)[1].

ومحل الشاهد: أنه جعل العجب من أكبر الذنوب.

وقد ورد في ذم العجب والتحذير منه، العديدُ من النصوص الشرعية، منها:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا)[2].

وفي هذه الآية دليل على أن العجب من أسباب الهزيمة والخذلان.

وقال صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ)[3].

وقال صلى الله عليه وسلم: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي قَدْ أَعْجَبَتْهُ جُمَّتُهُ وَبُرْدَاهُ، إِذْ خُسِفَ بِهِ الْأَرْضُ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)[4].

---

1 أخرجه البزار في مسنده ، ح رقم 6936

2 التوبة 25

3 رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب الميم [من اسمه محمد] رقم: 5452

4 رواه مسلم، كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم التبختر في المشي..ح رقم 49 - (2088)

ومن العجب أن يُعجب العبد بطاعته؛ قال الله تعالى: (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)[1].

وقيل لأمنا عائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئا؟ قالت: (إذا ظن أنه محسن)[2].

وقال أبو اسماعيل الهروي رضي الله عنه: (أَنَّ كل طَاعَةٍ رضيتَها مِنْك فَهِيَ عَلَيْك، وكلَّ مَعْصِيّةٍ عيَّرت بهَا أَخَاك فَهِيَ إِلَيْك)[3].

فلا يرضى بطاعته إلا جاهل بنفسه وآفاتها وعيوبها، ولا يدعي الكمال في الطاعة إلا جاهل بمقام ربه وحقوقه، فإن الطاعة مهما عَظُمَ شأنُها وحَسُنَ أداؤَها، فلن ترقي لئن تليق بمقام ذي الجلال والإكرام.

وقال بعض العارفين: (مَتَى رَضِيت نَفْسَكَ وَعَمَلَكَ لِلَّهِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ غَيْرُ رَاضٍ بِهِ)[4].

---

1 النجم 32
2 إحياء علوم الدين، 3 / 371
3 منازل السائرين للهروي 16
4 مدارج السالكين .. لابن قيم الجوزية، 1 / 193

فعلى طالب النجاة أن يجاهد نفسه باستمرار للتخلص من داء العجب، فإن المعجب لا يصعد له عمل، وعليه أن يتهم نفسه دوماً بالتقصير، وأن يسئ الظن بها، وأن يكون على وجل من عدم قبول طاعاته؛ فإن الله قد أخفى القبول؛ لتبقى القلوب على وجل، وأبقى باب التوبة مفتوحا ليبقى الإنسان على أمل.

قال ابن القيم: ((وَأَرْبَابُ الْعَزَائِمِ وَالْبَصَائِرِ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ اسْتِغْفَارًا عُقَيْبَ الطَّاعَاتِ، لِشُهُودِهِمْ تَقْصِيرَهُمْ فِيهَا، وَتَرْكَ الْقِيَامِ لِلَّهِ بِهَا كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ))[1]

وقد جاء الأمر بالاستغفار بعد أداء الطاعات في العديد من النصوص الشرعية، من ذلك: قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾[2].

فقد أُمروا بالاستغفار بعد أداء أعظم ركن من أركان الحج، وهو الوقوف بعرفة.

---

1 مدارج السالكين .. لابن قيم الجوزية، 1 / 192
2 البقرة 199

وروى مسلم عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ :(كَانَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا)[1].

واعلم بأن العجب بالطاعة غير الفرح والسرور بها، فالعجب أمر مذموم كما تقدم. أما الفرح بالطاعة فممدوح، فإن المؤمن يفرح إذا ما وفقه الله لطاعته، وأدخله بها في زمرة عباده الصالحين، وجعله أهلا لها.

كما قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: (كفى من جزائه إيّاك على الطاعة أن رضيَك لها أهلا).

وقال أيضا: (إذا أردت أن تعرف عند الله مقامك فانظر في ما أقامك).

وفي الحديث الشريف: (مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَسُرَّ بِهَا، وَعَمِلَ سَيِّئَةً فَسَاءَتْهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ)[2].

---

1 رواه مسلم في كتاب المساجد.. باب استحباب الذكر بعد الصلاة ح رقم 135- (591)
2 أخرجه الهيتمي في مجمع الزوائد... كتاب: الإيمان،باب: من سرته حسنته فهو مؤمن، ح رقم 285

المطلب الرابع: تطهير القلب من كل داء

تقدم شرح الرياء والحسد والعجب في قول الناظم:

يُطَهِّرُ الْقَلْبَ منَ الرِّياءِ   وَحَسدٍ عُجْبٍ وكُلِّ داءِ

وبقي قوله: (وكُلِّ داءِ)

ومعناه: أنه ينبغي للمؤمن السائر إلى الله تعالى أن يطهر قلبه – علاوةً على ما تقدم – من جميع الأمراض المعنوية، كالكبر والفخر، والغل والحقد، والبغي والغش، والغضب لغير الله تعالى، والإعراض عن الحق، والبخل والطمع، والخوف من الفقر، وعدم الرضا بالقضاء والقدر، وتعظيم الأغنياء لأجل غناهم، والاستهانة بالفقراء لأجل فقرهم، والحرص على الدنيا وطول الأمل، والخيلاء والمباهاة، وطلب السمعة وحب الظهور، والتزين للمخلوقين، وحب المدح بما لم يفعل، والأنانية والاعتداد بالنفس، وتتبع العورات والعثرات، والاشتغال بعيوب الخلق عن عيوبه...

فإن سلامة القلب هي أصل الدين، وأساس طريق السالكين؛ وقد سئل صلى الله عليه وسلم: (أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ

الْقَلْبِ؟ قَالَ: هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيَ وَلَا غِلَّ وَلَا حَسَدَ)[1].

فعلى المؤمن أن يتعاهد قلبه باستمرار، وأن يحرص على تنقيته من كل هذه الأمراض، وتزيينه بأضدادها، قال أبو حامد الغزالي رحمه الله[2]: "ومن لم يعرف قلبه؛ ليراقبَه ويراعيَه... فهو ممن قال الله فيه:[نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ]"[3].

ومن الجهل والغفلة أن يشتغل العبد بتنظيف وتزيين وجهه وجسده كل يوم، ثم يهمل تفقد قلبه وتطهيره من أدرانه، والقلب هو محل نظر ذي الجلال والإكرام، أما الظاهر فهو محل نظر المخلوقين الضعفاء؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

(إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ. وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ)[4].

---

1 رواه ابن ماجه، في كتاب الزهد، باب: الورع والتقوى، ح رقم 4216
2 إحياء علوم الدين 3 / 2
3 الحشر 19
4 رواه مسلم في كتاب: البر والصلة، باب: تحريم: ظلم المسلم..ح رقم: 33 - (2564)

ومن هذا المنطلق قال بعض العارفين: (**الخلق ينظرون إلى ظاهرك، والخالق ينظر إلى باطنك؛ فاحذر أن تزين محل نظر الناس، وتقبح محل نظر الله جل جلاله**).

المطلب الخامس: أصل آفات القلوب

وإليه أشار الناظم بقوله:

وَاعْلَمْ بأَنَّ أَصْــلَ ذِي الآفَاتِ	حُبُّ الرِّياسَـــــةِ وَطَـرْحُ الآتِي
رَأْسُ الخَطَايا هُوَ حُبُّ الْعاجِلَهْ	لَيْسَ الدَّوَا إِلاّ في الاِضْطِرَارِ لَهْ

يعني أن آفات القلوب أي أمراضها المتقدمة، كالرياء والحسد والعجب... كلها ناتجة عن آفة حب الرئاسة، أو ما يُعبر عنه بلغة العصر: حب المسؤولية والزعامة، كأن يحب بأن يكون رئيسا أو زيرا أو مستشارا أو قائدا أو مديرا... أو شيخ قبيلة أو طريقة أو زاوية... أو رئيس جمعية حيه أو فريقه الرياضي، ومن ذلك حب التصدر في المجالس والمناسبات...

وقد رأينا حروبا طاحنة في بيوت الله تعالى من أجل التنافس على المسؤولية فيها، والظفر برئاسة جمعياتها، فنتج عن ذلك ما لا حصر له من آفات القلوب، كالرياء والتحاسد والتباغض والوشاية واضطهاد الأئمة وحملة القرآن..

فصدق الناظم في قوله: (وَاعْلَمْ بأَنَّ أَصلَ ذِي الآفَاتِ حُبُّ الرِّياسَةِ وَطَـرْحُ الآتِي)

وقوله: (وَطَـرْحُ الآتِي)

يعني أن من تعلق قلبه بحب الرئاسة نسي ما هو آتٍ، من الموت وما يعقبه من أحوال اليوم الآخر...

ولو تذكر ذلك لما حرص على الدنيا وطلبِ العلو والرئاسةِ فيها؛ وكيف يحرص على ذلك وهو يعلم قول الحق تبارك وتعالى: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)[1].

ثم استدل الناظم لهذه الحقيقة بقوله: (رَأسُ الخَطَايا هُوَ حُبُّ الْعاجِلَهْ).

مشيرا بذلك إلى قوله صلى الله عليه وسلم: (حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ)[2].

---

1 القصص 83

2 رواه البيهقي في شعب الإيمان (الزهد وقصر الأمل) ح رقم 10019

وقال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ أَشْرَبَ قَلْبَهُ حُبَّ الدُّنْيَا الْتَاطَ[1] مِنْهَا بِثَلَاثٍ: شَقَاءٍ لَا يَنْفَدُ عَنَاهُ، وَحِرْصٍ لَا يَبْلُغُ غِنَاهُ، وَأَمَلٍ لَا يَبْلُغُ مُنْتَهَاهُ، فَالدُّنْيَا طَالِبَةٌ وَمَطْلُوبَةٌ)[2].

وقوله: (لَيْسَ الدَّوَا إلاّ في الاِضْطِرَارِ لَهْ)

أي لا دواءَ لحب الدنيا وما ينتج عنه من حب الرئاسة وسائر الآفات المهلكات، إلا الاضطرار إلى الله تعالى.

والمضطر هو: الشديد الحاجة، الذي لا يرى لنفسه شيئا من الحول والقوة، ولا يرى سببا من الأسباب يعتمد عليه، فهو كالغريق في البحر، وكالضال في القفر، لا يرى لإغاثته ونجدته إلا مولاه جل جلاله.

والمراد: أن يبرأ العبد من حوله وقوته، ويلجأ إلى ربه لجوء المضطر الذي انقطعت به السبل، وغابت عنه الحيل، وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه؛ فيدعوه على هذه الحال، ليخلصه من تلك الآفات، ويعصمه من الوقوع في تلك المهلكات؛ فإن الدعاء في حال الاضطرار من شأنه أن يستمطر رحمة

الله ورأفته، وأن يستدرَّ عطفه وحنانه، وبرِّهُ وإحسانه...

---

1 التاط : أي التصق
2 رواه الطبراني في المعجم الكبير ، باب العين ح رقم 10328

ولذلك قالوا: دعاء المضطر ليس بينه وبين الله حجاب؛ لقوله جل ثناؤه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[1].

قال القشيري رضي الله عنه: (دعاء المضطر لا حجاب له، وكذلك دعاء المظلوم)[2].

وتقدير البيتين المتقدمين: أن أصل أمراض القلوب هو حب الرئاسة ونسيان الآخرة، وحب الرئاسة ونسيان الآخرة سببه التعلق بالدنيا؛ لأن حب الدنيا هو رأس كل خطيئة، ولا دواء لكل ذلك إلا اللجوء إلى الله والاحتماء به وطلب العون منه، فهو وحده الموفق والهادي إلى سواء السبيل، فنعوذ به سبحانه وتعالى من غوائل انفسنا، ونبرأ إليه من حولنا وقوتنا.

---

1 النمل 62
2 لطائف الإشارات للقشيري 3 / 44

المبحث السادس: صحبة شيخ عارف بالمسالك

قال الناظم:

يَصْحَبُ شَيْخاً عَارِفَ المَسالِكْ	يَقِيهِ فِي طَرِيقِهِ الْمَهَالِكْ
يُذَكِّـــــــــــــــرُهُ الله إِذَا رَآهُ	وَيُوصِـلُ الْعَبْدَ إِلَى مَوْلاهُ

المطلب الأول: اشتراط صحبة الشيخ

اشترط فقهاء التصوف أن يصاحب المريد مشيخا مربيا، أي يرافقه ويلازمه؛ ليتلقى منه مبادئ التربية الصوفية؛ لأن كلَّ متعلمٍ مفتقرٌ إلى المعلم، وهو في هذا العلم أشد افتقارا؛ لاشتماله على الرياضة الروحية، والممارسة السلوكية، والمعارف الذوقية، التي قد يتعذر وصفها باللسان، فتحتاج في معرفتها إلى رياضة روحية وممارسة سلوكية، يرسمها الشيخ الخبير بهذا الطريق للمريد، ويمارسها معه حتى يتعرف على حقائقها العلمية، ويتذوق حلاوتها الإيمانية.

قال حجة الإسلام أبو حامد رحمه الله: **((واعلم أن بعض مسائلك التي سألتني عنها، لا يستقيم جوابها بالكتابة والقول، إن تبلغ تلك الحالة تعرف ما هي! وإلا فعلمها من المستحيلات؛ لأنها ذوقية،**

وكل ما يكون ذوقيا، لا يستقيم وصفه بالقول، كحلاوة الحلو ومرارة المر، لا تعرف إلا بالذوق))[1].

ومن هذا المنطلق كان لا بد للمريد، المتربص في ميدان التربية الروحية، من مصاحبة شيخ عارف بمسالكها وفنونها، وخبير بمراحل التدرج فيها، وبصير بحقائق الأنفس وآفاتها.

قال أبو حامد رحمه الله:

((فاعلم أنه ينبغي للسالك شيخ مرشد مربي، ليخرج الأخلاق السيئة منه بتربيته، ويجعل مكانها خلقا حسنا، ومعنى التربية يشبه الفلاح الي يقلع الشوك، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع؛ لحيسن نباته، ويكمل ريعه، ولا بد للسالك من شيخ يربيه ويرشده الى سبيل الله تعالى؛ لأن الله أرسل للعباد رسولا للإرشاد الى سبيله، فإذا ارتحل صلى الله عليه وسلم فقد خلف الخلفاء في مكانه، حتى يرشدوا الى الله تعالى))[2].

---

1 رسالة أيها الولد المحب لأبي حامد الغزالي 8
2 رسالة أيها الولد المحب لأبي حامد الغزالي 11

وفي الحديث الشريف: ((وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ))[1]

فالعلماء قد ورثوا عن الأنبياء علم الشريعة، الذي يُعنى بظواهر العبادات، كما ورثوا عنهم علم الحقيقة الذي يُعنى بأسرار العبادات، وهو علم التصوف؛ فمبادئ التربية الصوفية كلها موروثة عن المصطفى صلى الله عليه وسلم، فهو المرجعية الأولى للتصوف، فما من متصوف بحق إلا وهو آخذ بقسط من أنواره صلى الله عليه وسلم.

وقد أو صى ربنا جل جلاله بمصاحبة الصادقين من عباده، فقال تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)[2].

وهم الذين صدقوا في معاملة ربهم، واستوت ظواهرهم وبواطنهم، وهذا الوصف ينطبق تماما على المشايخ العارفين بالله عز وجل، المربين للأجيال بحالهم ومقالهم.

---

1 أخرجه ابن عبد البر المالكي في جامع العلوم والحكم رقم 173
2 التوبة 119

المطلب الثاني: قوله: (عَارِف المَسالِكْ)

يعني: أنه يشترط في الشيخ الذي تُراد صحبته، أن يكون عارفا بالله تعالى، خبيرا بالمسالك، أي بالطرق الموصلة إلى الله، لأن الله تعالى قال: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ).

فحصر سبحانه الخشية بأداة الحصر [إنما] في طائفة العلماء خاصة، فهم وحدهم مَن يخشون الله حق خشيته؛ وخشيتهم لله نابعة من معرفتهم الساطعة بربهم، لأن الخشية ثمرة المعرفة؛ فمن لا يعرف الله حق معرفته، لا يمكن أن يخشاه حق خشيته، ومن ثم يتعذر عليه أن يسير في الطريق الموصلة إليه، فأنَّى له أن يدل عليها غيره؟

ومفهوم قوله: (عَارِف المَسالِكْ): أنه لو صحب شيخا جاهلا بالمسالك، لأورده في طريقه المهالك، فمن يبرر لمريديه الانحراف بسلوكه – كأن يغتاب أمامهم أو يحبب لهم الدنيا– لا يصلح أن يكون قدوة في هذا الطريق.

قال أبو حامد رحمه الله: ((وشرط االشيخ الذي يصلح أن يكون نائبا لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه: أن يكون عالما، إلا أن كل

عالم لا يصلح للخلافة. وإني أبيّن لك بعض علاماته على سبيل الإجمال؛ حتى لا يدّعي كل أحد أنه مرشد.

فنقول: من يعرض عن حب الدنيا وحب الجاه، وكان قد تابع شيخا بصيرا تتسلسلت متابعته إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وكان محسنا رياضة نفسه... وكان بمتابعة الشيخ البصير جاعلا محاسن الأخلاق له سيرة... فهو إذًا نور من أنوار النبي صلى الله عليه وسلم يصلح للإقتداء به، ولكن وجود مثله نادر أعز من الكبريت الأحمر))[1].

واعلم أن هذه المواصفات التي تشترط في شيخ االطريقة الصوفية، مطلوبة أيضا في كل متصدِّر لتربية غيره، كالإمام مع مأموميه، فإنهم يُعتبرون مريدين له، وإذا لم يكن عارفا بالمسالك الموصلة إلى الله، أورد مأموميه المهالك، ولذلك فمن الخطأ أن يتلقى الأئمة في معاهد التكوين المعارف اللغوية والفقهية... ثم لا يتلقون شيئا من معارف التربية الروحية والسلوكية، وهي أساس صلاح الأعمال وقبولها.

---

1 رسالة أيها الولد المحب لأبي حامد الغزالي 11

المطلب الثالث: قوله: (يَقِيهِ فِي طَرِيقِهِ الْمَهَالِكْ)

أي يحميه في طريقه إلى الله، من الآفات التي توقعه في المهالك في دنياه وأخراه، كأمراض القلوب وآفات النفوس التي تقدم ذكرها، وذلك بتربيته وتوجيهاته ونصائحه المستمرة، وبتعليمه العلوم النافعة التي يهتدي بها إلى أنوار المعرفة؛ فإن العلم لا يؤخذ من بطون الكتب، وإنما يؤخذ من أفواه الرجال، المُمَكَّنِين من فهم دِلالات النصوص على الأحكام، والعارفين بمصطلحات العلماء وتعدد مداركهم، ولذلك قيل:

(كان العلم فى صدور الرجال، ثم انتقل إلى بطون الكتب، وصارت مفاتحه بأيدى الرجال).

وقال أبو حيّان الأندلسي:

يَظُنُّ الْغُمْرُ[1] أَنَّ الْكُتْبَ تَهْدِي ** أَخَا فَهْمٍ لإدراكِ الْعُلُوم

وَمَا يَدْرِي الجَهُولُ بأنَّ فِيْها ** غوامضَ حَيَّرَتْ عَقْل الْفَهِيمِ

إذَا رُمْتَ الْعُلْومَ بِغَيْرِ شَيْخٍ ** ضَلَلْتَ عَنِ الْصِّراطِ الْمُسْتَقِيْم

---

1 الغمر: الجاهل الغبي.

وَتَلْتَبِسُ الأمــورُ عَلَيْكَ حَتَّ ** تَكونَ أَضَّــلَ مِـنْ تُومَا الْحَكِيـمِ[1]

المطلب الرابع:قوله: (يُذَكِّرُهُ الله إِذَا رَآهُ وَيُوصِلُ الْعَبْدَ إِلَى مَوْلاهُ)

يعني: أن من فوائد صحبه الشيخ المربي– إضافة إلى ما تقدم من التربية والنصح والتعليم – أنه كلما رآه مريدُه تذكر الله تعالى؛ لما يرى من هيبته ووقاره وروحانيته وكثرة حديثه عن الله.. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الطراز من المشايخ المربين: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّه)[(2)].

وسُئل عليه الصلاة والسلام: مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ؟ فقَالَ: (الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ)[(3)].

---

1 توما الحكيم: طبيب يُضرب به المثل في الجهل، وكان قد ورث عن أبيه كتبا في الطب، فقرأ في أحدها: (الحبة السوداء شفاء مِن كلّ داء) غير أن النسخة التي قرأها كان فيها خطأ املائي بسيط ، حيث استُبدلت كلمة (الحبة) بـ (الحية) فقرأها: الحيّة السوداء شفاء مِن كلّ داء، وقيل أنه خرج يبحث عن حية سوداء فلدغته فمات، وذلك مثل الذين يأخذون العلم من الكتب دون الرجوع إلى العلماء.

2 رواه البخاري في الأدب المفرد، باب: النمام، ح رقم 323

3 رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق، باب: تعظيم ذكر الله، ح رقم : 217

وقوله: (وَيُوصِلُ الْعَبْدَ إِلَى مَوْلاهُ): يعني: أن الشيخ المربي بعد أن يقي مريده من الآفات المهلكة، وبعد أن يملأ قلبه بمحبة الله بحاله ومقاله، فإنه في النهاية يوصله إلى ربه سالما من كل شر، وغانما من كل خير، وتلك هي الغاية الأساسية من مصاحبة الشيخ.

المطلب الخامس: آداب المريد مع شيخه

اعلم أن الأدب مع الشيخ هو حجر الأساس في المنهج الصوفي، لأن التصوف كله مبناه على الأدب، فمن لاحظ له في الأدب لا حظ له في التصوف، ولذلك قال أهل هذا الفن: (من لا أدبَ له، لا سيرَ له، ومن لا سيرَ له، لا وصولَ له).

فعلى من رزقه الله شيخا معلما ومربيا أن يتأدب في حضرته، وأن يحترمه ظاهرا وباطنا حاضرا وغائبا، وأن يعتقد فيه الخير، وأن يحرص على التقرب منه، وأن يصبر على جفائه وشدته، وأن يطيعه في ما يأمره به، وأن لا يكثر من طرح الأسئلة عليه، وأن لا يجادله أو يعترض عليه، وأن لا يثبت بصره في وجهه إجلالا له، وأن لا يرفع صوته في مجلسه، وأن يناديه بالألفاظ الدالة على الاحترام والتبجيل، كشيخي وسيدي، ورحم الله من قال:

وَاحْفَظْ لِشَيْخِكَ مَا إِنْ عِشْتَ حُرْمَتَهُ وَاجْعَلْهُ فِي الْبِرِّ وَالتَّوْقِيرِ مِثْلَ أَبِ
قَبِّلْ يَدَيهِ إِذَا لَقِيْتَهُ أَبَداً فَكَمْ أَفَادَكَ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ أَدَبِ

وقد استمد علماء التصوف هذه الآداب ونحوها، من القرآن العظيم والسنة النبوية المطهرة.

كاستمداد عدم رفع الصوت بحضرة الشيخ من قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)[1].

وكاستمداد عدم مخاطبة المشايخ بأسمائهم المجردة من قوله تعالى: (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا)[2].

ووجه الاستدلال بالآتين: أنه كما ينبغي أن لا نفعل ذلك مع الرسول عليه الصلاة والسلام، فكذلك ينبغي أن لا نفعله مع ورثته من العلماء والمشايخ.

وكاستمداد عدم الاعتراض المريد على شيخه من قصة الخضر مع موسى عليهما السلام: (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)[3].

---

1 الحجرات 2

2 النور 63

3 الكهف 70

ولذلك قالوا: (لو قال المريد لشيخه: لِمَ؟ لَمْ يفلح أبدً).

وكاستمداد إجلال الشيخ من مثل قوله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ عَلَّمَ عَبْدًا آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ، فَهُوَ مَوْلَاهُ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَخْذُلَهُ، وَلَا يَسْتَأْثِرَ عَلَيْهِ)[1].

ولذلك قالوا: (من علمني حرفا صرت له عبدا).

وكاستمداد بقية الآداب من مثل قول سيدنا علي كرم الله وجهه: (مِنْ حَقِّ الْعَالِمِ أَلَّا تُكْثِرَ عَلَيْهِ بِالسُّؤَالِ، وَلَا تُعْنِتَهُ بِالْجَوَابِ، وَأَنْ لَا تُلِحَّ عَلَيْهِ إِذَا كَسِلَ، وَلَا تَأْخُذَ بِثَوْبِهِ إِذَا نَهَضَ، وَلَا تُفْشِيَنَّ لَهُ سِرًّا، وَلَا تَغْتَابَنَّ عِنْدَهُ أَحَدًا، وَلَا تَطْلُبَنَّ عَثْرَتَهُ، وَإِنْ زَلَّ قَبِلْتَ مَعْذِرَتَهُ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُوَقِّرَهُ وَتُعَظِّمَهُ لِلَّهِ مَا دَامَ يَحْفَظُ أَمْرَ اللَّهِ، وَلَا تَجْلِسَنَّ أَمَامَهُ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ سَبَقْتَ الْقَوْمَ إِلَى خِدْمَتِهِ)[2].

---

1 أخرجه الطبراني في المعجم الكبير باب: الصاد (من اسمه رقم 7528).

2 رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله 519

المبحث السابع: محاسبة النفس

قال الناظم:

يُحاسِبُ النَّفْسَ عَلَى الأَنْفَاسِ	وَيَزِنُ الخَاطِرَ بالْقِسْطَاسِ

المطلب الأول: حقيقة المحاسبة:

المحاسبة هي: أن يتصفح العبد أعماله وأقواله قبل الشروع فيها، وبعد الفراغ منها، فهي شبيهة بالمحاسبة التجارية، فالتاجر ينظر في رأس ماله وما حققه من ربح أو خسارة، وطالب النجاة رأس ماله الفرائض، وربحه النوافل، وخسارته المعاصي.

المطلب الثاني: أقسام المحاسبة:

تنقسم المحاسبة إلى ثلاثة أقسام، وهي:

1- المحاسبة قبل القول و العمل:

وذلك بأن يسأل نفسه : لماذا أتكلم ؟ ولماذا أعمل ؟ وهل الكلمة التي سأتكلم بها فيها مصلحة أم فيها مفسدة؟ وهل العمل الذي أنا بصدد الإقدام عليه فيه نجاتي أم فيه هلاكي؟ وهل أنا أبتغي به وجه الله؟ أم أبتغي به

السمعة والشهرة والرياء؟ وهكذا يحاسب نفسه على كل شيء، امتثالا لقوله عليه الصلاة والسلام: (ذَا أَرَدْتَ أَمْرًا فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَأَمْضِهِ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَانْتَهِ)[1]

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: (رحم الله عبدا وقف عند همه، فإن أحدا لا يعمل حتى يهم، فإن كان لله عز وجل مضى، وإن كان لغير الله أمسك)[2].

2– المحاسبة بعد القول والعمل: وهـي نوعان:

أحدهما: أن ينظر لعمله ويستغفر الله مما قد يشوبه من رياء وسمعة، ويردد الدعاء المأثور: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ)[3]

والثاني: أن يحاسب نفسه على الفرائض والواجبات:

---

1 اخرجه ابن المبارك، في الزهد والرقائق، باب: التحضيض على طاعة الله، ح رقم 41

2 أخرجه الترمذي في شعب الإيمان، رقم: 6894

3 أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب: فضل الدعاء، رقم716

- فإن وجد أنه قد أداها على الوجه الأكمل حمد الله وشكره.

- و إن وجد أنه ضيعها من أصلها شرع في قضائها وتات إلى الله واستغفره.

- وإن وجد أنه أداها ناقصة شرع في جبر النقائص بالنوافل.

3- المحاسبة على ما مضى من الأيام:

وذلك بأن يحاسب النفس على جميع ما مضى من عمره، يوما يوما، وساعة ساعة، كما روي عن توبة ابن الصمة -وكان محاسبا لنفسه- فحَسِبَ يوما فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها، فإذا هي أحد وعشرون ألفاً وخمسمائةِ يومٍ، فصرخ قائلا: (**يا ويلتي!! ألقى المَلِكَ بأحدَ وعشرين ألفَ ذنبٍ فكيف!؟ وفي كل يوم عشرةُ آلافِ ذنبٍ**)

ثم خرّ مغشيا عليه؛ فإذا هو ميت، فسمعوا قائلا يقول: (**يا لكِ ركضةً إلى الفردوس الأعلى**)[1].

هكذا ينبغي أن يحاسب العاقل نفسه، يحاسبها على (**الأنفاس**) التي تصعد منه كما قال الناظم، وقد قيل: أنها مائة وأربعة وعشرون ألفَ نفسٍ في اليوم والليلة، ويحاسبها على المعاصي بالقلب أو بالجوارح، ولو رمى العبد بكل

---

1 احياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، 4 / 406

معصية حجرا في داره، لامتلأت داره في مدة يسيرة من عمره، ولكننا للأسف نفعل ما نفعل، ونقول منا نقول، ثم ننسى أو نتناسى بأن الملكين قد حفظا علينا كل أعمالنا، ثم يوم سنُواجَهُ بها كاملة يوم القيامة، فتحصل لنا حينئذ المفاجئة الكبرى، كما قال مولانا جل ثناؤه: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)[1]

فَيَا أَسَــفَى عَلَى عُمُرٍ تَقَضَّى ** وَلَمْ أَكْسِبْ بِهِ إِلَّا الذُّنُوبَا

وَأَحْــذَرُ أَنْ يُعَاجِلَـنِي مَمَـاتٌ ** يُحَيِّرُ هَـوْلُ مَصْرَعِهِ اللَّبِيبَا

وَيَا حُزْنَاهُ مِنْ حشْرِي وَنشْـرِي ** بِيَوْمٍ يَجْعَــلُ الْوِلْـدَانَ شِيبَا

وقوله: (وَيَزِنُ الْخَاطِرَ بالْقِسْطَاسِ)

أي يزن ما يخطر بباله من خواطرَ وأفكارٍ بالميزان العادل، وذلك بأن يعرضه على الشرع الحنيف، فإن أمره بفعله فعله، وأن نهاه عنه تركه؛ لقوله تعالى:

---

1 المجادلة 6

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)[1]. وقوله صلى الله عليه وسلم: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لَمَّا جِئْتُ بِهِ)[2].

فأدلة الشريعة المعظمة هي المرجع في تحديد ما يصلح وما لا يصلح من الأفعال، لا محض العقول ومجرد الأهواء والرغبات العادية للنفوس.

المطلب الثالث: دليل المحاسبة وأقوال السلف والعلماء فيها

لقد دلت على المحاسبة أدلة كثيرة، منها :

1- قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)[3].

2- قوله تعالى: (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)[4].

قال الحسن البصري في تفسيرها: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا تَرَاهُ إِلَّا يَلُومُ نَفْسَهُ يَقُولُ: مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي؟.. مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي؟ مَا أَرَدْتُ بِحَدِيثِ

---

1 هود 112

2 رواه ابن أبي عاصم في السنة، ح رقم 15

3 الحشر 18

4 القيامة 2

نَفْسِي؟ فَلَا تَرَاهُ إِلَّا يُعَاتِبُهَا، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَمْضِي قُدُمًا فَلَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ)[1]

3- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ، مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ)[2].

4- وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الحِسَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا)[3].

5- وقال ميمون ابن مِهْرَانَ: (لَا يَكُونُ العَبْدُ تَقِيًّا حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ كَمَا يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ)[4].

---

1 رواه احمد في الزهد، رقم 1616

2 رواه ابن ماجه في سننه، كتاب: الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد، ح رقم:4260

3 سنن الترمذي ج 4 ص 219

4 سنن الترمذي ج 4 ص 219

6- وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله: ((فعرف أرباب البصائر من جملة العباد، أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة... فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته))[1].

---

1 إحياء علوم الدين، 4 / 394

المبحث الثامن: المحافظة على الفرائض والنوافل

قال الناظم:

وَيَحْفَظُ الْمَفْرُوضَ رَاسَ المَالِ	والنَّفْلَ رِبْحَهُ بِــهِ يُوَالِي

يعني: ويجب على المؤمن أن يحافظ على ما افترضه الله عليه من أمور الديانات، كالإيمان بالله ورسله، وكالصلاة والزكاة والصيام والحج، وبِرّ الوالدين وصلة الأرحام وحسن الجوار... لقوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا..)[1].

وقوله: (رَاسَ المَالِ)

يعني: أن تلك الفرائض هي رأس ماله الذي ينبغي أن يتزود به لرحلته الطويلة في الدار الآخرة، حيث القبر والبرزخ، ثم البعث والنشور، ثم الموقف والحساب والميزان، ثم الصراط وبعده الجنة أو النار، وهذه الرحلة الشاقة لا بد لها من ومؤونة، وهي ليست الذهب والفضة، بل هي العمل الصالح الذي افترضه الله عليه، فالحسنات وحدها هي العملة السارية في رحلة الدار الآخرة.

---

1 رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، باب: ما جاء في ذم القول في دين الله تعالى بالرأي... ح رقم 2012

كما قال القائل:

ستندم إن رحلتَ بغيـر زادٍ وتشقي إذْ يُناديك المنادِ
أترضي أن تكونَ رفيقَ قومٍ لهـم زادٌ وأنت بغيــرِ زادِ

وقال الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ)[1].

وقوله (والنَّفْلَ رِبْحُهُ بِهِ يُوَالِي)

يعني: أن النوافل هي ربحه الزائد على رأس ماله، فلْيوالِ بين الفرائض والنوافل، أي يجمع بينهما ويُتبع الفرائضَ بالنوافلِ، كالرواتب بعد الصلوات المفروضة؛ ليحصل على مزيد من الأرباح؛ وليكمّل بالنفل ما قد يحصل في الفرائض من نقص؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: (مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ..)[2].

---

1 سبأ 37

2 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقائق، باب: التواضع، ح رقم 6502

وقوله عليه الصلاة والسلام: (فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تطَوُّعٍ؛ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الفَرِيضَةِ..)[1].

1 رواه الترمذي في سننه رقم 413

المبحث التاسع: الإكثار من ذكر الله

قال الناظم:

وَيُكْثِرُ الذِّكْرَ بِصَفْوِ لُبِّهِ وَالْعَوْنُ فِي جَمِيع ذَا بِرَبِّهِ

يعني: ويجب على المؤمن أن يكثر من ذكر الله؛ لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)[1]. وقوله تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ).

المطلب الأول: فضل الذكر وعاقبة الإعراض عنه

ورد في فضل الذكر والتحذير من الإعراض عنه العديدُ من النصوص الشرعية، منها:

قوله تعالى : (وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ)[1].

---

1 الأحزاب 41

2 الأحزاب 35

وقال سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه: (مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ مِنْ عَمَلٍ أَنْجَى لَهَ مِنْ عَذَابِ اللهِ، مِنْ ذِكْرِ اللهِ)[2].

ونقل الشيخ ميارة المالكي عن الشيخ الجزولي قولَه:

(أنّ الإنسان إذا أكثر من ذكر الله تعالى، تجدّد خشوعهُ، وتقوّى إيمانُه، وازداد يقينُه، وبعُدت الغفلة عن قلبه، وكان الى التقوى أقربَ، وعن المعاصي أبعدَ)[3].

كما بين الله سبحانه وتعالى لنا عاقبة من يعرض عن ذكره، فقال جل جلاله:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [4].

وقال تعالى: (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) [5].

---

1 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الدعوات: باب: فضل ذكر الله عز وجل، ح رقم 6407

2 الدر الثمين والمورد المعين.. 590

3 رواه مالك في الموطأ، باب: ما جاء في ذكر الله، ح رقم 717

4 طه 124

5 الزخرف 36

والمعنى: أن من يغفل عن ذكر الله يسلط الله عليه شيطانا؛ عقوبةً له على غفلته عن ذكر ربه.

المطلب الثاني: معنى قوله: (بِصَفْوِ لُبِّهِ)

أشار بهذا إلى آداب الذكر، التي من جملتها:

- أن يصفِّيَ الذاكر لبَّه أي قلبه من التعلق بغير الله؛ فيكون ذكره خالصا لوجه الله، مُبرَّأً من أي غرض سوى ذلك؛ لقوله تعالى: (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)[1].

- ومن آداب الذكر أن يستحضرَ في ذهنه أنه يناجي ربه سبحانه وتعالى، وأن الله يسمعه ويراه، ومطلع على سره وعلانيته، وأنه جل ثناؤه لا يقبل ذكرا من قلب مكدَّر أو غافل لاهٍ، كما جاء في الخبر: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ)[2].

---

1 الزمر 3

2 رواه الحاكم في المستدرك، كتاب: الدعاء، ح رقم 817

المطلب الثالث: حالات الذكر:

للذكر ثلاث حالات:

1- الذكر بالقلب واللسان معا، وهو الأكمل، ومنه قوله تعالى: (فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً)[1].

قيل في تفسيرها: ألهجوا بذكر الله كما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه بلسانه وقلبه في كل حين.

2- الذكر بالقلب وحده، وذلك بأن يستحضر خشية الله في قلبه، ويتصور اطّلاعَه على جميع أحواله، ومنه قوله تعالى: (وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ)[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ)[3].

ومن الذكر بالقلب التفكرُ في آلاء الله وبدائع صنعه، التي تُعتبر آثارا دالةً على عظمته وقدرته وجميع صفاته سبحانه وتعالى، وهواديَ يهتدي بها السالكون إلى أنوار معرفته.

---

1 البقرة 200

2 آل عمران 135

3 رواه مالك في الموطأ رقم 3505 / 716

قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[1].

وروي عن أبي الدرداء وابن عباس رضي الله عنهما أنهما قالا: (تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ)[2].

3- الذكر باللسان وحده، ومنه قوله تعالى في الحديث القدسي: (أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ)[3].

ومنه أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: (لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ)[4].

---

1 آل عمران 119

2 رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء رقم 117.

3 رواه البخاري في صحيحه ، كتاب: التوحيد، باب : قول الله: (لا تحرك به لسانك).

4 رواه أحمد في مسنده (مسند الشاميين) رقم 17680

وأفضل الذكر تلاوة القرآن العظيم، قال تعالى: (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)[1].

ثم باقي الأذكار والأوراد المتنوعة، وأفضلها: لا إله إلا الله؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)[2].

وقال الناظم في باب العقيدة:

وَهِيَ أَفْضَلُ وُجُوهِ الذِّكْرِ فَاشْغَلْ بِهَا الْعُمْرَ تَفُزْ بِالذُّخْرِ

المطلب الرابع: معنى قوله: (وَالْعَوْنُ فِي جَمِيع ذَا بِرَبِّهِ)

(في) هنا بمعنى على؛ لأن الاستعانة وما تصرف منها إنما تتعدى بعلى، والمراد: أن العون على جميع الأحوال، من ذكر الله، وصفاء اللب...

إنما هو بربه سبحانه وتعالى، فهو وحده الهادي والموفق والمسدد والعاصم من جميع الزلات، كما قال القائل:

إِذَا كَانَ عَــوْنُ اللهِ لِلمَرْءِ نَاصِـراً تَهَيَّأَ لَهُ مِنْ كُـلِّ صَعْبٍ مُرَادُهُ
وَإِنْ لَمْ يَكُـنْ عَوْنٌ مِن اللهِ لِلْفَتَى فَأَكْثَرُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

---

1 الزخرف 44
2 رواه ابن ماجه في سننه، كتاب : الأدب، باب: فضل الحامدين، رقم الحديث: 3800

وإذا علم المؤمن هذه الحقيقة فلْيُظهر افتقاره إلى الله تعالى؛ متجردا من حوله وقوّته، كما قال ابن عطاء رحمه الله:

(تَحَقَّق بِأَوْصَافِكَ يُمِدُّكَ بِأَوْصَافِه).

يعني: تحقق بفقرك يمدك بغناه، وتحقق بذُلّك يمدك بعزه، وتحقق بعجزك يمدك بقدرته، وتحقق بضعفك يمدك بقوته.

لذلك ينبغي للمؤمن أن يستغرق في التضرع والدعاء، سائلا سيِّده ومولاه بأن يعينَه على ذكره، كما قال عليه الصلاة ولسلام لسيدنا معاذ:

(لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحَسَنِ عِبَادَتِكَ)[1].

---

1 رواه الحاكم في المستدرك، كتاب: الطهارة، ح رقم 1010

المبحث العاشر: مجاهدة النفس

قال الناظم:

يُجَاهِدُ النَّفْسَ لِرَبِّ الْعَالَمِينْ ....

المطلب الأول: حقيقة المجاهدة

حقيقة المجاهدة هي أن يعلم المؤمن أن نفسه هي أخطر عدو له؛ وأن من طبيعتها الميول إلى الشر، والنفور من الخير، لقوله تعالى: (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)[1].

فإذا علم ذلك شرع في مقاومتها، وقمع شهواتها، ومخالفة أهوائها، كما قال القشيري رضي الله عنه: (واعلم أَنَّ أصلَ المجاهدة وملاكَها: فطمُ النفس عَنِ المألوفات، وحملُها عَلَى خلاف هواها فِي عموم الأوقات)[2].

---

1 يوسف 53

2 الرسالة القشيرية 218

وقال البصيري رحمه الله:

والنفسُ كالطفلِ إن تهملهُ شَبَّ على ** حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

المطلب الثاني: شواهد المجاهدة

دلت على المجاهدة أدلة عديدة، منها:

قوله تعالى:(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)[1].

قال القرطبي: (وَمِنْهُ مُجَاهَدَةُ النُّفُوسِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَهُوَ الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ)[2].

ويُستفاد من هذه الآية أن المجاهدين لأنفسهم، سيهديهم الله إلى سبل الخيرات، ومنها: أن يكرمهم بأنوار معرفته، ويدلهم على الطرق الموصلة إليه.

1 العنكبوت 69

2 تفسير القرطبي 13 / 365

وقال عليه الصلاة والسلام: (وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ)[1].

وكان عليه الصلاة والسلام على جلالة قدره وسمو منزلته عند ربه، يجاهد نفسه باستمرار، فكان يقوم من الليل حتى تفطَّرت قدماه الشريفتان، ولما قيل له: أتصنع هذا؟ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ!! قال: (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)[2].

وكذلك كان شأن أصحابه البررة، الذين تربوا في مدرسته، ونهلوا من معينه، قال الإمام علي كرم الله وجهه:

[(وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا أَرَى الْيَوْمَ أَحَدًا يُشْبِهُهُمْ، لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثًا غُبْرًا، بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ أَمْثَالُ رُكَبِ الْمِعْزَى، قَدْ بَاتُوا لِلَّهِ سُجَّدًا وَقِيَامًا يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَأَقْدَامِهِمْ، فَإِذَا أَصْبَحُوا

---

1 اخرجه أحمد في مسنده رقم 23958

2 أخرجه الدينوري المالكي في المجالسة عن علي رقم (1466). وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن علي وعن أبي أراكة أيضا.

فَذَكَرُوا اللَّهَ مَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ فِي يَوْمِ الرِّيحِ، وَهَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ ثِيَابَهُمْ))[1].

هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضي الله عنهم، يراوحون بين أقدامهم وجباهم في محراب العبودية، مجاهدين لأنفسهم بالليل والنهار، وهذه الروحانية المتجلية في شخصه صلى الله عليه وسلم، وفي شخص أصحابه رضي الله عنهم، هي عين التصوف الذي يريد البعض تزييف حقائقه، وطمس أنواره، التي يهتدي بها السالكون في ظلمات هذه الدنيا المائجة بالفتن، كما يُهتدى بأشعة الشمس في ظلمات البر والبحر.

وصدق البصيري في قوله:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمدٍ ** وينكر الفم طعم الماء من سقمٍ

وذكر القشيري في باب المجاهدة:

أن أحد المشايخ كان يصلى فِي المسجد فِي الصف الأَوَّل، لسنوات كثيرة، فعاقه يوما عَنِ التبكير إِلَى الْمَسْجِد عائق؛ فصلى فِي الصف الأخير، ثم لم يُر بعد ذلك مدة، فسئل عَنِ سبب غيابه؟ فَقَالَ: كنت مشتغلا بقضاء صلواتي؛

---

1 اخرجه احمد في مسنده رقم 23958

لأنني حينما تأخرت عَنِ الْمَسْجِد ذات مرة، وشاهدني الناس في الصف الأخير، شعرت بنوعٍ من الخجل؛ فعلمت أَن نشاطي طول عمرى إِنَّمَا كَانَ لأجل رؤيتهم؛ فقضيت صلواتي كلها[1].

والشاهد في القصة:

أنه جاهد نفسه ليلزمها الإخلاص لله تعالى، ويؤدبها لئلا تنصرف إلى ملاحظة غيره تارة أخرى.

والحاصل: أنه ينبغي للمؤمن أن يعلم أن الجنة حُفت بالمكاره وأن النار حُفت بالشهوات، وأن النفس بطبعها ميَّالة للشهوات؛ لذلك ينبغي أن يجاهدها باستمرار، فإن خلدت إلى الراحة والكسل أتعبها، وإن رغبت في معصية زجرها، وإن تطلعت إلى شهوة حرمها، وإن قصرت في طاعة لامها، ثم ألزمها بفعل ما قصرت فيه.. ويستمر في مجاهدها وتأديبها على هذا النحو، حتى تتهذب وتزكو، وتتخلص من آفاتها وغوائلها، وتطمئن بلذة الذكر وطعم العبودية؛ فتصبح أهلا لكرامة الله ورضوانه.

---

1 الرسالة القشيرية 218 (بتصرف)

المبحث الحادي عشر: التحلي بمقامات اليقين

قال الناظم:

....	وَيَتَحَلَّى بِمَقَامَاتِ اليَقِيــــنْ
خَوْفٌ رَجَا شُكْرٌ وَصَبْرٌ تَوْبَهْ	زُهــــدٌ تَوَكـلٌ رِضـاً مَحَبَّـهْ
يَصْدُقُ شاهِدَهُ فِي الْمُعَامَلةْ	يَرْضَى بِمَا قَــدَّرَهُ الإِلَـهُ لَهْ

المطلب الأول: معنى اليقين

اليقين في اللغة: نقيض الشك، يُقال: علمتُه يقينًا، أي علمًا لاشك فيه. ومنه قوله تعالى: (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)[1]. أي يعلمون وجودها وأحوالها من حساب وسؤال وجنة ونار .. علما لا شك فيه.

وفي الاصطلاح: هو العلم الجازم الذي لاشك فيه، المؤدي إلى استقرار القلب وطمأنينته، والدافع إلى العمل.

وقال سيدنا الجنيد قدس الله سره: (الْيَقِينُ: هُوَ اسْتِقْرَارُ الْعِلْمِ، الَّذِي لَا يَنْقَلِبُ وَلَا يُحَوَّلُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ فِي الْقَلْبِ)[1].

---

1 البقرة 4

وعرفه سيدنا الشعراوي رحمه الله بقوله:

(الْيَقِينُ هُوَ تَصْدِيقُ الأَمْرِ تَصْدِيقاً مُؤَكَّداً، بَحَيْثُ لاَ يَطْفُو إِلَى الذِّهْنِ لِيُناقَشَ مِنْ جَدِيدٍ، بَعْدَ أَنْ تَكُونَ قَدْ عَلِمْتَهُ مِنْ مَصَادِرَ تَثِقُ بِصِدْقِ مَا تُبَلِّغُكَ بِهِ)[2].

المطلب الثاني: درجات اليقين

لليقين ثلاث درجات، وهي: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

قال الحسن بن علي رضي الله عنه: (مَنِ اتَّقَى الْكُفْرَ وَالنِّفَاقَ نَالَ مِنَ اللَّهِ مَعْرِفَةً يُقَالُ لَهَا عِلْمُ الْيَقِينِ، وَمَنِ اتَّقَى الْكَبَائِرَ نَالَ مِنَ اللَّهِ مَعْرِفَةً يُقَالُ لَهَا عَيْنُ الْيَقِينِ، وَمَنِ اتَّقَى الصَّغَائِرَ نَالَ مِنَ اللَّهِ مَعْرِفَةً يُقَالُ لَهَا حَقُّ الْيَقِينِ)[3].

---

1 الرسالة القشيرية للقشسري 319

2 تفسير الشعراوي 13 / 7792 مرقم آليا.

3 رواه البيهقي في الزهد الكبير رقم 911

الدرجة الأولى: علم اليقين.

عرفه الهروي في المنازل بقوله: (وَهُوَ قبُول مَا ظهر من الْحق، وَقبُول مَا غَابَ للحق، وَالْوُقُوف على مَا قَامَ بِالْحَقّ)[1].

وبيان ذلك كالآتي:

1- **قبُول مَا ظهر من الْحق**: أي قبول ما ظهر لنا من شرع الله وأوامره ونواهيه.. مما بينه لنا في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

2- **قبُول مَا غَابَ للحق**: أي قبول ما غاب عنا من أمور الغيب التي أخبر بها الحق سبحانه وتعالى في كتابه وعلى لسانه رسوله عليه الصلاة والسلام، كالبعث والموقف، والحساب والميزان، والحوض والصراط، والجنة والنار.

3- **الْوُقُوف على مَا قَامَ بِالْحَقّ**: أي قبول ما قام بالحق سبحانه وتعالى، كأسمائه وصفاته وأفعاله، وما يجب له وما يستحيل في حقه وما يجوز...

فالوقوف على كل ذلك ومعرفتُه عن دليل قاطع، والتصديق به تصديقا جازما، هو علم اليقين.

---

1 منازل السائرين للهروي 68

الدرجة الثانية: عين اليقين.

عرفه الهروي في المنازل بقوله: (وَهُوَ الْمُغْنِي بِالِاسْتِدْلَالِ عَنْ الِاسْتِدْلَالِ. وَعَنِ الْخَبَرِ بِالْعِيَانِ. وَخَرْقُ الشُّهُودِ حِجَابَ الْعِلْمِ)[1].

وبيان ذلك كالآتي:

1- الْمُغْنِي بِالِاسْتِدْلَالِ عَنْ الِاسْتِدْلَالِ: يعني أن في درجة عين اليقين يُستغنى عن طلب الدليل؛ لأن الدليل إنما يُطلب لأجل الوصول به إلى ما ليس بعلوم، فإذا كان الأمر معلوما بالمعاينة والمشاهدة، لم تبق أي حاجة إلى الاستدلال، وذلك معنى الاستغناء بالمعاينة عن الخبر.

قال ابن القيم في المدارج: (الْفَرْقُ بَيْنَ عِلْمِ الْيَقِينِ وَعَيْنِ الْيَقِينِ: كَالْفَرْقِ بَيْنَ الْخَبَرِ الصَّادِقِ وَالْعِيَانِ. وَحَقُّ الْيَقِينِ: فَوْقَ هَذَا)[2].

ومثال ذلك كما لو أخبرك جمع موثوق أن حريقا نشب في مكان ما، فهذا علم اليقين، ثم إذا ذهبت بنفسك إلى ذلك المكان، وشاهدت النار مشتعلة، فذلك

1 منازل السائرين للهروي 68 - 69

2 مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية 379

عين اليقين، فشهود العين قد أغنى عن الخبر، وفي أمثالنا: ليس من رأى كمن سمع.

2- **خَرْقُ الشُّهُودِ حِجَابَ الْعِلْمِ**: يعني أن المعرفة التي تحصل لصاحب هذه الدرجة اليقينية، تخترق فيها المشاهدةُ حجابَ العلم، حيث ينتقل صاحبها من منزلة المعلومة المستندة إلى برهان أو خبر صادق، إلى منزلة المعاينة والمشاهدة، كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم عن مقام الإحسان: (**أن تعبد الله كأنك تراه**). وكما قال الإمام عليه عليه السلام: (**لو كُشِف الغطاءُ مَا ازددتُ يقينا**)[1].

الدرجة الثالثة: حق اليقين.

عرفه الهروي في المنازل بقوله: (**وَهُوَ إِسْفَارُ صُبْحِ الْكَشْفِ. ثُمَّ الْخَلَاصُ مِنْ كُلْفَةِ الْيَقِينِ. ثُمَّ الْفَنَاءُ فِي حَقِّ الْيَقِينِ**)[2].

أي ظهور صبح الكشف، والمراد: انجلاء ظلمة ليل الحجاب عن قلب العارف بالله تعالى؛ لتوالي الأنوار عليه، فينتقل بذلك من مرحلة العلم والاستدلال، إلى مرحلة الانشغال التام بمشاهدة الحق جل جلاله ببصر

---

1 شرح نهج البلاغة للإمام علي، تأليف عز الدين عبد الحميد بن هبة الله ، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم 7 / 253

2 منازل السائرين.. 69

القلب، والفناء – أي الغفلة والإعراض – عن كل ما سواه، وبوصوله إلى هذه الدرجة يتخلص مما كان يتحمله من مشاق كلفة اليقين، كالاستدلال عليه بما يدل على ثبوته وتحققه؛ لأنه صار يسري في قلبه كسريان الدماء في العروق، أو كالنَّفَسِ الذي يملأ صدره بالهواء دون كلفة منه... واعلم بأن هذا مقام ذوقي رفيع المستوى، فتأمله ولا تحدث به من لا يعقله من العامة.

قال ابن القيم عن السادة الصوفية من أهل هذا المقام:

(هُمُ الْقَوْمُ!! لَا قَوْمَ إِلَّا هُمْ، وَلَوْلَاهُمْ مَا اهْتَدَيْنَا السَّبِيل، فَنِسْبَةُ أَحْوَالِ مَنْ بَعْدَهُمَ.. إِلَى أَحْوَالِهِمْ: كَنِسْبَةِ مَا يَرْشَحُ مِنَ الظَّرْفِ وَالْقِرْبَةِ إِلَى مَا فِي دَاخِلِهَا)[1].

وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله: **(حق اليقين عند العلماء الراسخين: أعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن، هي أقوى وأجلى من مشاهدة الأبصار.. وحالهم حال من أُخبِرَ فصدَّق، ثم شاهد فحقَّق)**[2].

---

1 مدارج السالكين .. 381

2 إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي 1 / 54

فالمراد بالشهود أو المشاهدة في كل من عين اليقين وحق اليقين: إنما هي المشاهدة ببصر القلب، لا ببصر العين، وقد تكون رؤية القلب أقوى وأوضح من رؤية البصر، كما قال الحق تبارك وتعالى: (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)[1].

ومثال الدرجات الثلاث التي تقد ذكرها: كما لو أخبر شخص لا تشك في صدقه أن عنده عسلا، ثم أراك إياه فازدت يقينا، ثم ذقته فانشغلت بذوقه عما سواه.

فإخبارك به: علم اليقين، ورؤيتك إياه: عين اليقين، وذوقك منه حق اليقين.

وقد ورد ذكر هذه الدرجات الثلاث في موضعين في القرآن العظيم:

1- في سورة التكاثر، قال تعالى :((كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)) ومما قيل في تفسيرها[2]: لو تعلمون علم اليقين بأنكم ستبعثون، لرأيتم الجحيم بعيون قلوبكم، من خلال تصوركم لمشاهد القيامة وأهوالها، ولو رأيتم ذلك لما ألهاكم التكاثر.

---

1 الحج 46

2 انظر تفسير القرطبي المجلد 10 الجزء 20 ص 174

ثم قال تعالى: ((ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)). أي ثم سترون الجحيم يوم القيامة رأي العين، فالمؤمنون يرونها من خلال مرورهم على الصراط، كما قال تعالى: ((وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها)). وأما الكافرون فهي مأواهم وبئس المصير

2- في سورة الواقعة، قال تعالى: ((فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ))

أي هذا الذي قصصناه عليكم من الروح والريحان وجنات النعيم للمقربين، ومن السلام لأصحاب اليمين، ومن نزل الحميم وتصلية الجحيم للمكذبين الضالين، هو حق اليقين الذي سيعاينه ويتذوقه كلٌّ من المذكورين.

فمن وُعد بالجنة رآها رأي العين، وتذوق نعيمها وعاشه واقعا وحياة...

ومن وُعد بالجحيم رآها عيانا، وذاق عذابها وعاشه حقيقة كذلك.

المطلب الثالث: مقامات اليقين

المراد بمقامات اليقين: الأخلاق الثابتة المستقرة المكتسبة[1]، التي ينبغي أن يتحلى أي يتصف بها المؤمن؛ لأنها ثمرة ليقينه الراسخ بالله جل جلاله، وبكل ما شرعه وأخبر به على ألسنة رسله، وهي أحد عشر مقاما وبيانها كالآتي:

الفرع الأول: الخوف:

ومعناه: أن يكون المؤمن على خوف دائم من عقاب الله، إما الدنيا وإما في الآخرة، وأن يكون على خوف من عدم القبول؛ وقد كان السلف يخافون عدم قبول أعمالهم، وكان إهتمامهم بقبول العمل أشدَّ من اهتمامهم بالعمل؛ فعن فضالة ابْنُ عُبَيْدٍ رضي الله عنه قالُ: (لَأَنْ أَعْلَمَ أَنَّ اللهَ تَقَبَّلَ مِنِّي مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)(2).

وقد قيل: إن الله أخفى القبول لتبقى القلوب على جل، وأبقى باب التوبة مفتوحا ليبقى العبد على أمل.

---

1 المقامات: تقابلها الأحوال، والفرق بينهما، أن المقامات مكتسبة، أما الأحوال فهي مواهب من الله تعالى.

2 أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق، باب: في التقوى...

فينبغي للمؤمن أن يكون خائفا من ربه على الدوام، لقوله تعالى: (وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[1].

وقد استدل بعض العارفين بهذه الآية على أن الخوف من شروط الإيمان ومقتضياته.

وكيف لا يخاف المؤمن ربه؟ وقد قال جل جلاله: (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ)[2].

وقال تعالى: (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)[3].

ومدح المؤمنين بخوفهم، فقال سبحانه تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)[4]

ولما نزلت هذه الآية قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (يا رسول الله: أَهُمُ الَّذِينَ يَزْنُونَ، وَيَسْرِقُونَ، وَيَشْرَبُونَ الْخَمْرَ)؟ قال:(لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ،

---

1 آل عمران 175

2 آل عمران 28

3 الأعراف 99

4 المؤمنون 60

وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ تُقْبَلَ مِنْهُمْ)[1].

وقال الله عز وجل في بيان فضل الخوف منه: (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)[(2)].

وقال نبي الله عليه الصلاة والسلام: (عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)[(3)].

وقال صلى الله عليه وسلم مبينا حقيقةَ الخوفِ من الله وثمرتَه: (مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ)[(4)].

ومعنى أدلج: أي سار في أول الليل ، وقيل: في آخره؛ والمراد: أن من خاف المخاطر أدلج في السير، أي سار بالدجى بغاية النشاط والقوة، ليقطع مسافة سيره بسرعة، فيسلم بذلك من المخاطر.

---

1 رواه الترمذي في سننه رقم 3175

2 الرحمن 46

3 رواه الترمذي في سننه رقم 1639

4 رواه الترمذي في سننه رقم 2450

وإذن: فالخوف الحقيقي هو : ما حال بين العبد وبين محارم الله عز وجل، أما ادعاء مخافة الله مع الإقامة على معاصيه، فهو خوف كاذب مزيف لا يفيده صاحبه في شيء، كما لو قال لك قائل: إني أعرف الكهرباء وأخاف من صعقاتها، ثم تراه يمد يديه إلى أسلاك كهربائية مشحونة ومكشوفة، فهل تراه كان صادقا حينما ادعى معرفة الكهرباء والخوف من صعقاتها. وكذلك الشأن لمن يدعي معرفة الله والخوف منه مع إصراره على معصيته.

وقد قيل: لَيْسَ الخائف الَّذِي يبكي ويمسح عينيه، إِنَّمَا الخائف من يترك مَا يخاف أَن يُعذب عَلَيْهِ.

وقيل للفضيل بن عياض: مالنا لا نرى خائفا؟ فَقَالَ: ((لو كنتم خائفين لرأيتم الخائفين؛ إن الخائف لا يراه إلا الخائفون)).

الفرع الثاني: الرجاء:

ومعناه: أن يحسن المؤمن الظن بربه، وأن يبذل جهده في عمل الصالحات واكتساب الحسنات، ويتوكل على ربه، راجيا منه قبول أعماله، وإثابته عليها، والتجاوز عما يقع فيه من هفوات وزلات... قال تعالى: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)[1]

---

1 الكهف 110

فمَن بذل جهده وقدم الأسباب، من فعل الطاعات وترك المحرَّمات، منتظرًا لرحمة ربه وعفوه ومغفرته وجوده وإحسانه، فذلك هو الراجي حقا..

أما مَن ينتظر من الله أن ينجيه من النار، وأن يدخله الجنة، دون أن بذل جهدا أو يقدم سببا، فلا يعتبر راجيًا، بل هو عاجز متمنٍّ،

كما قال عليه الصلاة والسلام: (الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ، مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ)[1].

وإذن: فالرجاء أن يتقي العبد ربه ما استطاع، وأن يكون مع ذلك راجيا لرحمة ربه، طامعا في مغفرته وعفوه، مستبشرا بجوده وفضله؛ لقوله تعالى: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)[2].

وقوله تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[3].

---

1 رواه ابن ماجه في سننه، كتاب: الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد، ح رقم:4260

2 الأعراف 156

3 الزمر 53

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[1].

وفي الحديث القدسي: قال الله تبارك وتعالى: (يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي، يَاابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً)[2].

وأنشد الإمام الشافعي رحمه الله قائلا:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَت مَذَاهِبِي ... جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْـوِكَ سُلَّمَا

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِــي فَلَــمَّا قَرَنْتُــهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّي كَــانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

فَمَا زِلْتَ ذَا جُودٍ وَفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ ... تَجُــودُ وَتَعْفُـــو مِنَّــةً وَتَكَـرُّمَا

---

1 الفرقان 70

2 رواه ابالترمذي في سننه رقم 3540

وينبغي للمؤمن أن يجمع بين الخوف والرجاء؛ لقوله تعالى: (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا).

فلا يدع الخوف يسيطر على قلبه؛ لئلا يؤدي به ذلك إلى اليأس والقنوط من رحمة ربه، ولا يُغلِّب جانب الرجاء؛ لئلا يقع في الانحلال والأمن من مكر الله تعالى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ العُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ)[1].

وقال الإمام النووري رحمه الله: (اعْلَمْ أَنَّ الْمُخْتَارَ لِلْعَبْدِ فِي حَالِ صِحَّتِهِ أَنْ يَكُونَ خَائفًا رَاجِيًا، وَيَكُونَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ سَواءً، وفي حَالِ المَرَضِ يُمَحِّضُ الرَّجاءُ)[2].

وإنما قال يغلب الرجاء في حال مرضه؛ ليطمئن قلبه ويحسن الظن بربه ويحب لقاءه، فيُختم له بالحسنى، فإن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، وفي

---

1 رواه مسلم ، كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى، ح رقم 23 - (2755)

2 رياض الصالحين 157

الحديث: (لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ)[1].

الفرع الثالث: الشكر:

ومعناه: الإقرار بالقلب بفضل الله ونعمه، والتعبير عن ذلك بالقول والعمل؛ فينبغي للمؤمن أن يستحضر في قلبه بأن ما به من نعمة أو بأحد من الخلق، فهو من الله وحده، وأن يكون شاكرا لله على نعمه؛ لقوله تعالى: (وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)[2].

وقوله تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)[3].

ونعم الله على عباده لا حصر لها، فهي تغمرهم من كل جانب، وتلاحقهم في كل نفس يملأ صدوهم بالهواء، ومع كل خفقة قلبٍ تدفع في عروقهم الدماء، ولكنهم قلما يشعرون بهذا الفضل العظيم، و قلما يشكرون صاحبه ذا الجلال والإكرام،

---

1 رواه مسلم، كتاب: صفة الجنة ونعيمها.. باب: الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، ح رقم 82 - (2877)

2 البقرة 152

3 فاطر 3

الذي أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وهو القائل جل ثناؤه: (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)[1].

وقال تعالى: (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)[2].

وقال تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)[3].

والشكر يكون بالقلب واللسان وسائر الجوارح، كما أشرنا إلى ذلك في تعريفه:

– فأما الشكر بالقلب: فهو الإقرار بفضل الله تعالى، وإضمار تعظيمه ومحبته؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: (أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ)[4].

– وأما الشكر باللسان: فهو إظهار الحمد والثناء على الله بما هو أهله، وقد علمنا المصطفى عليه الصلاة والسلام أن نستفتح يومنا الجديد بحمد الله وشكره، وأن نختمه بمثل ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْكَ وَحْدَكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ، فَلَكَ الْحَمْدُ، وَلَكَ الشُّكْرُ، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِهِ، وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ)[1].

---

1 غافر 61

2 النحل 53

3 ابراهيم 34

4 أخرجه أحمد في فضل الصحابة رقم 1952

وبين لنا بأن حمد الله وشكره على نعمه سبيل لنيل مرضاته، فقال عليه الصلاة والسلام:(إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا)[2].

– وأما الشكر بالجوارح: فيكون باستعمال جميع نعم الله تعالى في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، فلا ينظر بعينيه إلى ما يُغضب الله تعالى، وقل مثل ذلك في بقية الجوارح. قال الشيخ ميارة المالكي رحمه الله: (شكرُ العينَيْن أن يسترَ كلَّ عيب يراه.. وشكرُ الأُذُنَيْن أن يسترَ كلَّ عيب يسمعه)[3].

وشكر النعم يستوجب حفظها وزيادتها، وحلول البركة فيها، كما أن جحودها وكفرانها يستوجب سلبها والحرمان منها، قال الله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)[4].

---

1 رواه أبو داود في سننه رقم 5073

2 رواه مسلم، كتاب: الذكر والدعاء.. باب: استحباب حمد الله بعد الأكل.. ح رقم: 89 - (2734)

3 الدر الثمين والمورد المعين 595

4 إبراهيم 7

وقال جل جلاله: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)[1].

الفرع الرابع: الصبر:

ومعناه: أن يحبس المؤمن نفسه على ما تكرهه أو تستثقله، وهو على ثلاثة أقسام:

- الأول: صبر على المصائب والابتلاء في هذه الحياة الدنيا، التي جعلها الله دار امتحان واختبار، فإذا اشتدت أزماتها، وترادفت ضوائقها، فالصبر وحده الذي ينير الطريق للمؤمن، ويعصمه من الوقوع في السخط والقنوط. كما قال القائل:

فاصبرْ إذا الدّهرُ نَبَا نبوةً فَجُنَّة الحازم أن يصبرا

وكتاب الله جل ثناؤه مليء بالدعوة إلى الصبر، وبيان فضله وعِظَمِ أجر الصابرين. من ذلك: قوله تعالى: (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)[2].

وقال تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[1].

---

1 النحل 76

2 لقمان 17

- والثاني: صبر على الطاعة، فالتكاليف الشرعية كلها تحتاج في أدائها والمحافظة عليها إلى صبر، قال الله تعالى: (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)[2].

وقال تعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)[3].

وصحبة العارفين ومعاشرة المؤمنين عامة هي الأخرى تحتاج إلى صبر، قال تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)[4].

وطلب العلم يحتاج إلى صبر كما قال القائل:

وَمَنْ يَصْطَبِرْ لِلْعِلْمِ يَظْفَرْ بِنَيْلِهِ * وَمَنْ يَخْطُبِ الحَسْنَاءَ يَصْبِرْ عَلَى البَذْلِ

وقال آخر:

لَا تَحْسَبْ الْمَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ   لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

- والثالث: صبر عن المعاصي؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ)[5].

---

1 الزمر 10

2 مريم 65

3 طه 132

4 الكهف 28

5 رواه مسلم، كتابك الجنة وصفة نعيمها.. ح رقم 1 – (8222)

فالمحافظة على الطهر والعفاف، والإدبار عن الشهوات والمغريات، لا يتأتّى إلا لصبور، لاسيما في هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن، وغزت فيه المغريات بالعصيان كل البيوت، بواسطة شبكة الانترنت.

الفرع الخامس: التوبة:

وقد تقدم الحديث عنها في المبحث الأول من الفصل الثاني.

الفرع السادس: الزهد:

ومعناه: ترك الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، وإيثار ما عند الله تعالى على نعيم الدنيا وملذاتها الزائلة، وإنما يُعتبر زاهدا إذا ترك نعيم الدنيا مع قدرته عليه، أما إن تركه مع عجزه عن الوصول إليه فلا يُسمّى زاهدا، ولذلك لما قيل لمالك بن دينار: يا زاهد، قال: (**الزاهد عمر بن عبد العزيز؛ إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، وأما أنا ففي ماذا زهدت**)؟[1].

وقيل: الزهد أن لا يفرح بموجود من الدنيا، ولا يتأسف عَلَى مفقود منها؛ لقوله سبحانه وتعالى: (**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**)[2].

---

1 قوت القلوب في معاملة المحبوب.. لمحمد أبي طالب المكي 1 / 415

2 الحديد 23

وقال سفيان الثوري: (الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا: قِصَرُ الْأَمَلِ، لَيْسَ بِأَكْلِ الْغَلِيظِ، وَلَا لُبْسِ الْعَبَايَةِ)[1].

فالزهد لا يعني أن يحرم المؤمن نفسه من طيبات الحياة الدنيا، التي سخرها الله لعباده، من زوجة ومأكل وملبس ومسكن ومركب...

وإنما الزهد أن يُخرج حب الدنيا من قلبه، وأن لا يقيم لها وزنا، وأن يعلم أنها سريعة الذهاب، وأن لا يفرط في ما أمره الله به من أجلها.

كما قال أَبُو سُلَيْمَان الداراني: (الزهد ترك مَا يشغل عَنِ اللَّه تَعَالَى)[2].

وقد وردت العديد من النصوص الشرعية في بيان فضيلة الزهد، منها:

قوله تعالى: (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)[3].

وقال تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)[4].

---

1 الرسالة القشيرية 240

2 الرسالة القشيرية 241

3 طه 131

4 الشورى 20

وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: (ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ)[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا يُرِيحُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ، وَإِنَّ الرَّغْبَةَ فِي الدُّنْيَا تُطِيلُ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ)[2].

الفرع السابع: التوكل:

ومعناه: الاعتماد على الله تعالى، في جلب الخيرات ودفع الشرور، مع الاعتقاد الجازم بأنه لا معطي ولا مانع ولا نافع ولا ضار إلا الله. وبهذا يتجلّى لنا أن التوكل من مقتضيات التوحيد، فعلمك بأنه لا إله إلا الله، يقتضي أن لا تخشى ولا ترجو إلا الله، وأن لا تعتمد على سواه، ومن توكل على الله كفاه، ومن التجأ إليه وقاه، قال الله تعالى: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)[3].

وقال تعالى: (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[4].

---

1 رواه ابن ماجه في سننه رقم 4102

2 رواه أحمد في الزهد رقم 51

3 الطلاق 3

4 المائدة 23

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا)[1].

ولله دَرُّ القائل:

كيف تخاف الفقـرَ والله رازقٌ فقد رزق الطيرَ والحـوتَ فى البحرِ
ومن ظـنّ أن الرزق يأتى بقوة ما أكـل العصفور شيئا مع النسرِ

والتوكل محله القلب، ويُعبر عنه باللسان أيضا في الأدعية والأذكار؛ وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم إذا خرج من بيته قال: (بِاسْمِ اللهِ، توكلتُ على اللهِ)[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ قَالَ- يَعْنِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ -: بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ، يُقَالُ لَهُ: كُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ)[3].

واعلم بأن التوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب، فإن الله تعالى قد جعل لكل شيء سببا موصلا إليه، فلا ولد من غير تزاوج، ولا زرع من غير حرث..

---

1 رواه الرتمذي في سننه رقم 2044

2 رواه الترمذي في سننه رقم 5095

3 رواه الترمذي في سننه رقم 3426

فتقديم ما أمكن من الأسباب هو من جملة التوكل على الله تعالى، أما التفريط في اتخاذ الأسباب فهو مخالف لأمر الله وسننه الكونية.

ولذلك قال العلماء: **اتخذ الأسباب وكأنها كل شيء، وتوكل على الله وكأن الأسباب ليست بشيء.**

وقد حثنا الله على اتخاذ الأسباب في أكثرَ من آية، من ذلك:

قوله تعالى: (**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**)[1].

وقال تعالى: (**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ**)[2].

وحينما عزم نبينا صلى الله عليه وسلم على الهجرة، اتخذ كل الاحتياطات اللازمة لنجاح خطة هجرته..حيث اختار لهذه المهمة الخطيرة صاحبا ورفيقا مخلصا وفيا شجاعا مقداما.. وهو سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه.. واستأجر دليلاً مأمونا ذا كفاءة عالية ليدله على الطريق إلى المدينة.. وكتم أمر هجرته.. واختار الاختباء في غار ثور.. الواقع جنوب مكة تضليلاً للمطاردين له.. وحدد لكل شخص مهمةً أناطها به.. فكلف عبد الله بن أبي بكر بتقصِّي الأخبار.. وكلف عامر بن فهيرة راعي أغنام أبي بكر بمحو آثار الأقدام..

---

1 الملك 15

2 الانفال 60

وكلف أسماء بنت أبي بكر بتزيده بالطعام والشراب.. وكلف علياً بن أبي طالب أن يرتدي برده.. وينام في مكانه؛ ليوهم كفار قريش بأنه لا يزال في مكانه..

هكذا اتخذ صلى الله عليه وسلم الأسباب وكأنها كل شيء في النجاح، ثم توكل على الله وكأنها ليست بشيء؛ فحينما أحاط به المشركون في غار ثور، قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسولَ الله، لو نظرَ أحدُهم إلى أسفلِ قدميه لرآنا، فقال له صلى الله عليه وسلم:

(يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا)[1].

وأنزل الله تعالى في ذلك:(إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)[2].

وبهذا يكون عليه الصلاة والسلام قد أرشدنا بسنته العملية إلى ضرورة الأخذ بالأسباب، وعلمنا أن التوكل الحقيقي هو أن نأخذ بكل الأسباب، ونسدّ كل الثغرات، ونغطي كل الاحتمالات... وبعدها نتوكل على رب الأرباب ومسبب الأسباب.

أما أن تأكل الفواكه بلا غسيل وتقول: إني سميت الله عليها، وإني متوكل عليه، فهذا غباء وليس توكلا، وقد روي أن (مَنْ أَكَلَ الطِّيْنَ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ نَفْسِهِ)[1].

---

1 التوبة 40

2 رواه مسلم في كتاب: الفضائل: باب: فضائل الصحابة، رقم: 1 – (2381).

الفرع الثامن: الرضا:

ومعناه: استسلام العبد لسيده ومولاه في كل شيء، ورضاه منه بأدنى شيء، وعدم اعتراضه على حكمه وقضائه في كل شيء، وقناعته بقسمته في كل شيء، وسروره بالمقدور في جميع الأمور، وطمأنينةُ قلبه عند كل مفزِع، وطيبُ نفسه وسكونها في كل حال...

والرضا عن الله سبحانه وتعالى من أعلى مقامات اليقين بالله، وهو ثمرة من ثمار المحبة، فمن امتلأ قلبه بحب الله تعالى، رضي بجميع أفعاله، ولم يلتفت إلى ما قد يصيبه من ألم في هذه الدنيا، ورضاه بذلك يكون من وجهين:

الوجه الأول: إما أن لا يشعر بالألم إطلاقا؛ لانشغال قلبه بحب الله تعالى.

ومثال ذلك من واقعنا: أننا كثيرا ما نرى بعض الناس يعكفون على ألعاب لهم، يلعبونها في العراء بشغف شديد.. وآخرون يعكفون على مشاهدة أفلام أو مباريات بشغف أيضا، فلا يشعر أيٌّ من الفريقين بألم الجوع أو البرد ونحو ذلك، ولو كلمتهم ما انتبهوا إليك؛ لانشغال قلوبهم وشغفها بما هم فيه.

---

1 التوبة 40

والوجه الثاني: أن يحس بالألم ولكنه يرضى به، بل ويرغب فيه ويريده؛ لما يعلم ما فيه من الخير، كما قال أبو علي الدقاق: (**لَيْسَ الرضا أَن لا تحس بالبلاء، إِنَّمَا الرضا أَن لا تعترض عَلَى الحكم والقضاء**)[1].

ومثال ذلك من واقعنا: كمن يقدم على عملية جراحية، ويدفع لأجلها الأموال، على الرغم مما تسببه له من آلام، وكفرح المرأة بولادتها ورغبتها فيها، على الرغم من مشقة الولادة، وقس على ذلك ما أشبهه مما يرضى العبد بألمه، رجاء الحصول على ثمرته المرتقبة.

وإذا علمت هذه الحقيقة الواقعية، فاعلم أن كذلك حال المؤمن مع ربه، فمهما أصابه بلاء من الله تعالى، رضي به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه؛ لأنه على يقين بأن ما يُدخر له من الثواب عند الله، هو فوق ما أصابه بكثير، ويعلم أيضا أن مصابه زائل، وأن ما يُدّخر له من الثواب باقٍ أبدا.

ولهذا كان السابقون الأولون يتسابقون إلى ميدان الاستشهاد في سبيل الله، وإذا ما أصيب أحدهم بسهم ابتهج وصاح بأعلى صوته قائلا: فزتُ ورب الكعبة.

وهناك وجه آخر للرضا هو أعلى رتبة من الوجهين المتقدمين، وخلاصته: أن يهيمن حب الله على قلب المحب، فتكون لذته ونشوته في إيثار مراد محبوبه

---

1 الرسالة القشيرية 342

ورضاه، دون ملاحظة أي شيء آخر من ثواب أو غيره. ولهذه الحالة شواهد كثيرة في حب الخلق بعضهم لبعض.

وقد وردت العديد من النصوص الشرعية في بيان فضيلة الرضا، من ذلك:

– قوله سبحانه تعالى: (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ)[1].

وفي هذا دليل على أن نعيم الرضا أعلى من نعيم جنات عدن، وهي من أعلى الجنات.

– وقال تعالى: (هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاّ الإِحْسَانُ)[2].

فمن أحسن الرضا عن الله جازاه الله بالرضا عنه، وهذا غاية الجزاء ونهاية العطاء.

– وقال تعالى: (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)[3].

قال ابن القيم: (وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ حُصُولِ الرِّضَا: أَنْ يَلْزَمَ مَا جَعَلَ اللَّهُ رِضَاهُ فِيهِ، فَإِنَّهُ يُوصِلُهُ إِلَى مَقَامِ الرِّضَا وَلَا بُدَّ)[4]

---

1 التوبة 27

2 الرحمن 60

3 التوبة 100

4 مدارج السالكين 172

وحكى القشيري أن تلميذا قال لأستاذه: هل يعرف العبد أَن اللَّه تَعَالَى راض عَنْهُ؟ فقَالَ لا، كَيْفَ يعلم ذَلِكَ ورضاه غيب!! فَقَالَ التلميذ: الولي يعلم ذَلِكَ، فقَالَ: كَيْفَ؟ قَالَ: إِذَا وجدتُ قلبي راضيا عَنِ اللَّه تَعَالَى علمت أَنَّهُ راض عني، فَقَالَ الأستاذ: أحسنت يا غلام[1].

– وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أَحَبَّ اللهُ عَبداً اِبتَلاهُ، فَإِن صَبَرَ اجتَباهُ ، فَإِن رَضِيَ اصطَفاهُ)[2].

وفي هذا دليل على أن الرضا أعلى مقاما من الصبر؛ لأن الصبر هو حبس النفس على ما تكره وعدم التسخط، أما الرضا فهو انشراح الصدر بالقضاء.

– وقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ رَضِيَ بِاللّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ)[3].

– وقال صلى الله عليه وسلم: (وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ)[4].

---

1 الرسالة القشيرية 342

2 رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب بلا سند رقم 971

3 رواه مسلم في كتاب: الإمارة: باب: ما أعده الله للمجاهد، رقم: 116 – (1884).

4 رواه أحمد في مسنده 8095

الفرع التاسع: المحبة:

ومعناها: تعلق القلب بالمحبوب وإفراده بذلك التعلق، والمحبوب بحق هو الله جل جلاله، وكل محبة لسواه فهي منه ولأجله. ومحبته تعالى مقام عظيم من مقامات اليقين، قال ابن القيم رحمه الله في بيان منزلتها: ((وَهِيَ الْمَنْزِلَةُ الَّتِي فِيهَا تَنَافَسَ الْمُتَنَافِسُونَ، وَإِلَيْهَا شَخَصَ الْعَامِلُونَ، وَإِلَى عِلْمِهَا شَمَّرَ السَّابِقُونَ، وَعَلَيْهَا تفَانىَ الْمُحِبُّونَ، وَبِرُوحِ نَسِيمِهَا تَرَوَّحَ الْعَابِدُونَ، فَهِيَ قُوتُ الْقُلُوبِ، وَغِذَاءُ الْأَرْوَاحِ، وَقُرَّةُ الْعُيُونِ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي مَنْ حُرِمَهَا فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْوَاتِ، وَالنُّورُ الَّذِي مَنْ فَقَدَهُ فَهُوَ فِي بِحَارِ الظُّلُمَاتِ، وَالشِّفَاءُ الَّذِي مَنْ عَدِمَهُ حَلَّتْ بِقَلْبِهِ جَمِيعُ الْأَسْقَامِ، وَاللَّذَّةُ الَّتِي مَنْ لَمْ يَظْفَرْ بِهَا فَعَيْشُهُ كُلُّهُ هُمُومٌ وَآلَامٌ))(1).

واعلم بأن محبة الله هي ثمرة لمعرفته جل ثناؤه؛ فلا تتصور محبةُ من غير معرفة وإدراك، لأن الإنسان لا يحب شيئا لا يعرفه، ولهذا كانت معرفة الله أول واجب على المكلف، فما كان في محبته راحة ولذة عند المُدْرِكِ، فهو محبوب عنده، وما

---

1 مدارج السالكين 3 / 8

كان في محبته ألم وشقاوة، فهو مبغوض عنده، وما لا لذة فيه ولا ألما، فلا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها.

وإذا عرفت ذلك فاعلم أنه لا ألذَّ ولا أرْوحَ ولا أسعدَ ولا أهنأَ من محبة الله جل جلاله، فكل ما في الكون من جمال، ومن بر وإحسان، ومن رحمة ونعمة، ومن لطف ورعاية.. فهو من الله وحده.

قال تعالى: (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ)[2].

فمن أنار الله بصيرته بنور معرفته؛ فأدرك عظمته وانكشف له جمالُه وجلالُه، ولاحظ في الوجود بره وإحسانه.. هام بمحبته جل ثناؤه، قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)[3].

فهو وحده سبحانه وتعالى المستحق للمحبة، وما وجب أو مُدح من محبة غيره، كمحبة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومحبة العلماء والأتقياء والأولياء والصالحين.... فكل ذلك راجع لمحبته جل جلاله، فرسول المحبوب محبوب، وولي المحبوب محبوب، ومحبوب المحبوب محبوب، فمحبة الله تقتضي محبة الرسول

---

1 النحل 53

2 رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر.. رقم 147 – (91).

3 البقرة 165

الكريم، ومحبة القرآن العظيم، ومحبة العلماء والصالحين، ومحبة سائر المؤمنين، ومحبة الشريعة المعظمة، ومحبة نصرة الدين، ومحبة الخير لعموم المسلمين...

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللَّهِ..)[1].

وقال صلى الله عليه وسلم:(ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)[2].

ومحبة الله تعالى تقتضي أن لا يكون ثمة شيء أحبَّ إلى النفس، وآثرَ لديها من ابتغاء رضوان الله، ونيل القرب منه جل جلاله.

قال تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ

---

1 تقدم تخريجه

2 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب، حلاوة الإيمان، رقم 16

تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)[1].

وبين الله جل جلاله أن من دلائل محبته: التواضع للمؤمنين والتلطف بهم، والشدة والغلظة على الكافرين، والجهاد من أجل إعلاء كلمة الله والتمكين لدينه، سواء كان ذلك الجهاد بالسيف، أو كان بالعلم وفعل الخير والدعوة إلى الله..

فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)[2].

كما بين سبحانه وتعالى أن طريق المحبة إليه يكمن في اقتفاء أثر نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام؛ فقال تعالى:

---

1 التوبة 24

2 المائدة 54

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [1].

كما بين لنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أن محبة الله تعالى، ومحبة رسوله، ومحبة الأبرار من عباده، تُبَلِّغُ صاحبها أكرمَ المنازل؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام:

(وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ قَالَ: لاَ شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ. قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ، فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ. قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ)[2].

فنرجو من الله تعالى أن يكرمنا بمحبتهم وأن لا يحرمنا من مرافقتهم في الجنة.

---

1 آل عمران 31

2 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: مناقب عمر بن الخطاب.. رقم 3688

الفرع العاشر: الصدق مع الله:

وهو المراد بقول الناظم: (يَصْدُقُ شاهِدَهُ فِي الْمُعَامَلهْ)

– وقوله: (يصدق) معطوف على قوله: (يتحلى).

– وقوله: (شاهده) يعني الله تعالى، فهو شاهد العبد، المطلع على سره وعلانيته، والشهيد على سائر أعماله الظاهرة والباطنة، قال تعالى: (وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)[1]. وقال تعالى: (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)[2].

– وقوله: (في المعاملة). يعني معاملة العبد لربه. والمراد: أن يكون صادقا في معاملته لربه.

واعلم بأن مقام الصدق مع الله مقام عظيم من مقامات اليقين، فهو الطريق الأقوم الذي مَن لزمه كان من الفائزين، ومن حاد عنه كان من الهالكين، وإليه ترجع كل المعاني المتقدمة، من إخلاص في العمل، وصفاء في السريرة، وتوبة ومحاسبة ومجاهدة، ومحافظة على المفروض وإكثار من ذكر الله، وتوكل ورضا ومحبة.....

---

1 آل عمران 31

2 آل عمران 98

فالصدق في التصوف الإسلامي لا يقتصر على الصدق باللسان، بل هو شامل لصدق اللسان، وصدق القلب والأحوال والأفعال، وحاصله: (أن لاَّ تكذِّب أحوالُ العبد أعمالَه، وأن لا تكذب أعمالُه أحوالَه).

قال الإمام أبو القاسم القشيري قدس الله سره:

"والصدق عماد الأمر، وَبِهِ تمامُه وفيه نظامُه، وَهُوَ تالي درجة النبوة؛ قَالَ اللَّه تَعَالَى: [فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ][1] وأقلُّ الصدق: استواءُ السر والعلانية، والصادق من صدق فِي أقواله، والصِّدِّيق من صدق فِي جَمِيع أقواله وأفعاله وأحواله"[2].

وإن كتاب الله عز وجل لحافل ببيان فضيلة الصدق والدعوة إليه، من ذلك:

– أن بين لنا سبحانه وتعالى أنه لا أنفع للعبد ولا أنجى له في دنياه وأخراه: من الصدق مع الله تعالى. فقال سبحانه وتعالى: (هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ)[3].

---

1 النساء 69

2 الرسالة القشيرية 363

3 المائدة 119

وقال تعالى: (لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ)[1].

– ومدح سبحانه وتعالى أهل البر والإيمان والصلاة والزكاة والصدقة والوفاء والصبر، ثم وصفهم بأنهم هم الصادقون حقا.

فقال تعالى: (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)[2].

– ودعانا سبحانه وتعالى إلى ملازمة صحبة الصادقين، فقال تعالى:(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)[3].

وقد قيل: أنهم الذين استوت ظوارهم وبواطنهم، وتلك قمة الصدق مع الله.

---

1 آل الأحزاب 24

2 البقرة 117

3 التوبة 119

- وأثنى سبحانه وتعالى على أهل الصدق ووصفهم بالمتقين، فقال تعالى:(وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)[1].

والذي جاء بالصدق هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والذي صدق به هم المؤمنون عامة، وقيل: أبو بكر خاصة.

ومن الواقع التطبيقي للصدق مع الله تعالى

1- ما روي عن أنس بن النضر رضي الله عنه: أنه لم يشهد غزوة بدر مع النبي صلى الله عليه وسلم، فكبُرَ ذلك عليه، فقال: أول مشهد شهِده رسول الله صلى الله عليه وسلم غِبْتُ عنه، أما والله لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لَيَرَيَنَّ الله ما أصنع. فلما كانت غزوة أُحُدٍ، خرج فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: إلى أين يا أنس؟

فقال: واهًا لريح الجنة! أجدُها دون أُحُدٍ، فقاتل حتى قُتِل، فوُجد في جسده بضعٌ وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية.. ونزل فيه وفي نظرائه قوله تعالى: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ)[2].

---

1 الزمر 33

2 الأحزاب 23

2- ما حكاه القشيري عَن أَبِي عَمْرو الزَّجّاجيّ[1] أَنَّهُ قَالَ:

ماتت أمّي فورثتُ منها دارا، فبعتُها بخمسين دِينَارا، وخرجتُ إِلَى الحج فلما بلغت بابل[2] استقبلني واحد من القناقنة[3] وَقَالَ: ما معك؟ فَقُلْتُ: فِي نفسي: الصدق خير، ثُمَّ قُلْت: خمسون دِينَارا، فَقَالَ: ناولنيها، فناولته الصرَّة، فعدَّها فَإِذَا هي خمسون دِينَارا، فَقَالَ: خذها فلقد أخذني صدقك، ثُمَّ نزل عَنِ الدابة وَقَالَ: أركبها، فَقُلْتُ: لا أريد، فَقَالَ: لابد، وألحَّ عَلَي، فركبتها فَقَالَ: وأنا عَلَى أَثَرِكَ، فلما كَانَ العام المستقبل لحق بي ولازمني حَتَّى مَات[4].

والشاهد في القصة:

أن الله أنجاه بصدقه وأراه ثمرته في الدنيا؛ وصدق الله العظيم إذ يقول: (فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ)[5].

---

1 أحد علام التصوف في القرن الرابع الهجري، صحب الجنيد وغيره من أعلام التصوف، وأصله من نيسابور، وسكن مكة حتى توفي بها.

2 مدينة قديمة بالعراق على بُعد 85 كلم من العاصمة بغداد

3 القناقنة: جمع مفردها (قِنْقِن) وهو: الدليل الهادي والخبير بالماء تحت الأرض وحفر الآبار. انظر: حاشية الطيبي على الكشاف 11 / 495

4 الرسالة القشيرية 365

5 محمد 21

الفرع الحادي عشر: الرضا بالقدر:

وإليه أشار الناظم بقوله: (يَرْضَى بِمَا قَدَّرَهُ الإِلَهُ لَهْ) والرضا بالقدر داخل في ذكرناه في مقام الرضا.

والمراد بالقدر: جريان جميع الأمور في هذا الكون، وفق ما قضى الله وحكم به في الأزل.

فجميع ما يجري في هذ الكون، من إيجاد أو إعدام، ومن خير أو شر... قد علمه الله سحانه في سابق علمه الأزلي، واتجهت إليه إرادته، وتعلقت به قدرته، فلا يوجد منه شيء إلا بعلم الله وإرادته وإذنه.

كما قال سبحانه وتعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)[1].

وقال تعالى:(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)[2].

أما الرضاء بالقدر: فهو أن يُسلّم المؤمن جميعَ أموره لله تعالى، ويرضى بما قدره الله له من خير أو شر؛ وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم بالإيمان لمن

---

1 التغابن 11

2 الحديد 22

يصبر على البلاء ويرضى بقضاء الله وقدره؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم عَلَى الْأَنْصَار، فَقَالَ:

(أَمُؤْمِنُونَ أَنْتُم؟) فَسَكَتُوا، فَقَالَ عمر: نعم يَا رَسُول الله، قَالَ: (وَمَا عَلامَة إيمَانكُمْ؟). قَالُوا: نشكر عَلَى الرخَاء وَنَصْبِر عَلَى الْبَلَاء وَنَرْضَى بِالْقضَاءِ، فَقَالَ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسلم: (مُؤمنُون وَرب الْكَعْبَة)[1].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا قَضَى قَضَاءً أَحَبَّ أَنْ يُرْضَى بِهِ)[2].

والمؤمن من طبعه أن يكره ما قد يصيبه من بلاء، ولكنه يرضى به وإن كان لا يحبه؛ لأنه مستسلم لربه ومفوضٌ أمرَه إليه، وموقن بأن كل ما يجري في هذا الكون هو لحكمة أرادها الله جل جلاله.

وقد حزن المصطفى صلى الله عليه وسلم وبكى لموت ولده إبراهيم، ولكنه سارع إلى إعلان الرضا بقدر الله، فقال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ العَيْنَ

---

1 أخرجه الحافظ العراقي، وقال : أخرجه اطبراني والخطيب وابن عساكر، وقال: أن في سنده ضعف. انظر : تخريج أحاديث الإحياء 1 / 1401 – 1576 مرقم آليا.

2 الثبات عند الممات لابن الجوزي 35

تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ)[1].

وإذا فقه المؤمن حقيقة الابتلاء وأحسن تفسيره، هانت عليه مصائبه، وصارت أحزانه أفراحا ومَسرَّات، واستحالت خسائره إلى مكاسب في الحياة، وشواهد ذلك لا حصر لها، نذكر منها:

1- قصة الغلام الذي قتله الخضر بأمر الله تعالى، وقد كره موسى ذلك، وقال مستنكرا على لخضر فعلته: (أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا)[2].

فموسى عليه السلام وقف عند ظاهر الأمر، أما لخضر عليه السلام فنظر إلى عاقبة الأمر الذي أطلعه الله عليه، فقال لموسى مبينا له حكمة قتله للغلام: (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا)[3].

---

1 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الجنائز، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: إنا بك لمحزونون، رقم 1303

2 الكهف 74

3 الكهف 80

2- قصة أم موسى عليه السلام، حيث ألهمها الله أن ترضعه، ثم ترميه في البحر متى خافت عليه من جنود فرعون، الذين كانوا يقومون بدوريات تفتيش مستمرة، بحثا عن ذكور بني إسرائيل ليذبحوهم، وإنه لأمر مؤلم ومحزن أن ترمي والدة ولدها في البحر، ثم تأخذه أمواج البحر لترميه بين أيدي جنود فرعون، لكن هذا الأمر الذي لا أكره منه لأم موسى، قد ظهرت عواقبه المحمودة في مستقبل الأيام، فقد رده الله إلى أمه وجعله من المرسلين، وكان سببا في هلاك فرعون وجنوده أجمعين.

وقس على ذلك ما أشبهه؛ متأملا قول الحق تبارك وتعالى: (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)[1].

فعلى المؤمنن أن يحسن الظن بربه، وأن يستعين على الرضا بالقضاء والقدر، بالنظر إلى هوان الدنيا على الله، وإلى ما أعده سبحانه في الآخرة من نعيم لا ينفد لمن يصبر على البلاء ويرضى بالقضاء؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ)[2].

---

1 البقرة 216

2 رواه الترمذي في سننه رقم 2396

وقال صلى الله عليه وسلم: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)[1].

واعلم بأن الرضا بالقدر لا ينافي الدعاء، ولا التداوي والتوقي من البلاء، ولا كراهية المعاصي...

- فأما الدعاء فقد تعبدنا الله به، وكان أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام يدعون ربهم وهم في قمة الرضا.

- وأما التداوي والتوقي من البلاء: فنحن مأمورون به شرعا، ففي الحديث الشريف: (تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً فِي الْأَرْضِ إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً إِلَّا الْهَرَمَ)[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: (...وَفِرَّ مِنَ المَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ)[3].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ)[4].

---

1 رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق. باب: المؤمن أمره كله خير. رقم64 – (2999)

2 رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم 1435

3 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الطب، باب: الجذام، رقم 5707

4 رواه مالك في الموطأ، رقم 3329/ 673

واما كراهية المعاصي: فقد تعبد الله بها عباده، وذم من يرضى بها فقال تعالى:

(وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا...)[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)[2].

والتغيير بالقلب يقتضي كراهية المنكر وعدم الرضا به.

---

1 يونس 7

2 رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان.. رقم 78 – (49)

المطلب الرابع: ثمار التحلي بمقامات اليقين

قال الناظم:

يَصِيــرُ عِنْدَ ذَاكَ عَــارِفاً بِهِ	حُرَّاً وَغَيْرُهُ خلاَ مِنْ قَلْبِهِ
فَحَـبَّـهُ الإِلــهُ وَاصْطَفَــاهُ	لِحَضْرَةِ الْقُدُّوسِ واجتَبَاهُ

بين في هذين البيتين ثمار التحلي بمقامات اليقين المتقدمة، وهي كالآتي:

1- أن من يتحلى بتلك المقامات يصير عارفا بربه تعالى معرفة يقينيةً، ناشئة عن دلائل قطعية، وعن محبة وممارسة ذوقية، ومن عرف الله صفا عيشه، وطابت حياته، وقويت خشيته، وازدادت هيبته، وهابه كل شيء، وذهب عنه الخوف من المخلوقين، وأنس بالله عز وجل..

ومعرفة الله جل ثناؤه ومحبته وذكره والأنس به والشوق إليه، هي جنَّة الدنيا التي لا عبور لجنة الآخرة إلا عن طريقها.

2- أن من يتحلى بتلك المقامات يصير حرًّا من العبودية لغير لله، وتتمحض عبوديته لله وحده؛ وذلك لخلو قلبه من محبة غيره تعالى، وهو معنى قوله: (يصير .. حُرَّاً وَغَيْرُهُ خلاَ مِنْ قَلْبِهِ).

لأنه لو تعلَّق قلبه بمحبة غيره لكان عبدا لذلك الغير، كما قال سيدنا ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه: (ما أَحْبَبْتَ شَيئاً إلا كُنْتَ لَهُ عَبْداً، وَهُوَ لا يُحِبُّ أَنْ تَكونَ لِغَيْرِهِ عَبْداً)

لأن القلب يتعلق بمحبوبه ويخضع له ويطيعه في كل ما يريد، كما قيل:

(إن المحب لمن يحب مطيع).

3- يجازيه الله تعالى على تحلّيه بمقامات اليقين، بأن يكرمه بمحبته ويصطفيه لحضرته، ويدخله بفضله ومنّته في زمرة أحبائه واصفيائه، الذين قال فيهم عز وجل:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)[1].

فهذا معنى قوله رحمه الله:

يَصِيـرُ عِنْدَ ذَاكَ عَـارِفاً بِهِ ... حُرَّاً وَغَيْرُهُ خلاَ مِنْ قَلْبِهِ

فَحَـبَّـهُ الإِلـهُ وَاصْطَفَـاهُ ... لِحَضْرَةِ الْقُدُّوسِ واجتَبَاهُ

---

1 النساء 69

الخاتمة

هذا ما تيسر لنا جمعه وبيانه في شرحنا

(لمبادئ التصوف وهوادي التعرف)

من نظم ابن عاشر رحمه الله تعالى، ونسأل الله الكريم أن يوفقنا إلى التحلي بهذه المبادئ القويمة، وأن يخلصنا بها من خِلالنا الذميمة، وأن ينفع بهذا الكتاب قارئَه، وأن يكرم بحسن الثواب مصححه وناشرَه، وأن يجعله لنا وسيلة ونوالا، لا حجة علينا ووبالا، فإن الفضل منه مألوف، وهو بالعفو موصوف.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا وشفيعنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وصحبه الميامين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ب العالمين.

فرغت من تأليف هذا الكتاب يوم:

الاثنين 20 محرم 1445هـ/7 أوت 2023

وفرغت من مراجعته وتنقيحه يوم:

الاثنين 19 صفر 1445هـ/ 4 سيبتمبر 2023

المنكسرُ فؤادُه من فُرْط الجناية وقلة العمل والتقوى:

العيد بن التوهامي بن زطـة الجزائري

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الأبيات التي تم شرحها	1
تقريظ الشيخ محمد صالح بوسحابة	3
مقدمة المؤلف	6
الفصل الأول التعريف بعلم التصوف	9
المبحث الأول: المبادئ العشرة لعلم التصوف	10
المبحث الثاني: الفقه والتصوف لا غنى لأحدهما عن الآخر	23
المبحث الثالث: شرح عنوان كتاب الناظم: مبادئ التصوف..	29
الفصل الثاني: المبادئ الأساسية لعلم التصوف	30
المبحث الأول: التوبة والاستغفار	32
المطلب الأول: حقيقة التوبة	32
المطلب الثاني: حكم التوبة	33
المطلب الثالث: شروط التوبة	35
المبحث الثاني: التقوى	39
المطلب الأول: حقيقة التقوى	39
المطلب الثاني: ثمار التقوى	41
المبحث الثالث: حفظ الجوارح	44
المطلب الأول: معنى الجوارح	44
المطلب الثاني: غض البصر عن المحارم	45
المطلب الثالث: كف السمع عن المآثم	47

المطلب الرابع: كف اللسان عن المآثم	48
المطلب الخامس: حفظ البطن من الحرام	57
المطلب السادس:: حفظ الفرج من الحرام	58
المطلب السابع: حفظ اليدين والرجلين	61
المبحث الرابع: إيقاف الأمور حتى يُعلم حكم الله فيها	63
المبحث الخامس: تطهير القلب	65
المطلب الأول: تطهير القلب من الرياء	66
المطلب الثاني: تطهير القلب من الحسد	70
المطلب الثالث: تطهير القلب من العُجْبِ	77
المطلب الرابع: تطهير القلب من كل داء	83
المطلب الخامس: أصل آفات القلوب	85
المبحث السادس: صحبة شيخ عارف بالمسالك	89
المبحث السابع: محاسبة النفس	99
المطلب الأول: حقيقة المحاسبة	99
المطلب الثاني: أقسام المحاسبة	99
المطلب الثالث: دليل المحاسبة	103
المبحث الثامن: المحافظة على الفرائض والنوافل	106
المبحث التاسع: الإكثار من ذكر الله	109
المطلب الأول: فضل الذكر وعاقبة الإعراض عنه	109
المطلب الثاني: معنى قوله: (بِصَفْوِ لُبِّهِ)	111
المطلب الثالث: حالات الذكر	112
المطلب الرابع: معنى قوله: (وَالْعَوْنُ فِي جَمِيع ذَا بِرَبِّهِ)	114

المبحث العاشر: مجاهدة النفس	116
المطلب الأول: حقيقة المجاهدة	116
المطلب الثاني: شواهد المجاهدة	117
المبحث الحادي عشر: التحلي بمقامات اليقين	121
المطلب الأول: معنى اليقين	121
المطلب الثاني: درجات اليقين	122
المطلب الثالث: مقامات اليقين	129
الفرع الأول: الخوف	129
– الفرع الثاني: الرجاء	132
– الفرع الثالث: الشكر	136
– الفرع الرابع: الصبر	139
– الفرع الخامس: التوبة	141
– الفرع السادس: الزهد	141
الفرع السابع: التوكل	143
– الفرع الثامن: الرضا	147
– الفرع التاسع: المحبة	151
– الفرع العاشر: الصدق مع الله	156
– الفرع الحادي عشر: الرضا بالقدر	161
المطلب الربع: ثمار التحلي بمقامات اليقين	167
الخاتمة	169
الفهرس	170